11

تقرر أن يلقي بوش خطاب وقت ذروة يفصّل فيه القضية المثارة ضد صدام في سنستاتي يوم 7 تشرين الأول/أكتوبر. قامت وكالة الاستخبارات المركزية بفرض نوع من الرقابة على ما كان بوش سيقوله، واكتشفت أن الرئيس عازم على إطلاق كلام مخيف عن برنامج نووي محتمل لدى صدام عن طريق اتهام العراق بأنه ضُبط وهو يحاول شراء أكسيد اليورانيوم في أفريقيا.

بعد قراءة مسودة الخطاب قال تَنَتْ لهادلي: "عليك أن تشطب هذه الجملة اللعينة لأننا لا نصدق ما ورد فيها". قام هادلي بلفت نظر الرئيس إلى ما قيل. وبدلاً من الجملة السابقة قال بوش في خطابه: "كثيرون سألوا عن مدى اقتراب صدام حسين من تطوير سلاح نووي. حسناً، لا نعرف بدقة، ولعل تلك هي المشكلة". كان زعماً متواضعاً عكس ما ورد في تقويم الاستخبارات القومية (NIE)، التقويم الجماعي لسائر الأجهزة الاستخباراتية في الولايات المتحدة، الذي كان قد صدر قبل خمسة أيام، بدقة. فالتقويم السري للغاية كان يقول بـ "ثقة متواضعة" إن "العراق لا يتوفر على أي سلاح نووي أو مادة كافية لصنعه غير أن من المحتمل أن يمتلك سلاحاً كهذا بين عامي 2007 و2009."

غير أن الرئيس رفع مستوى الإنذار إلى الحد الأقصى بدلاً من أن يقول إن أي عراق نووي لن يكون وارداً إلا بعد خمس سنوات، قائلاً: "في مواجهة مؤشرات الخطر الواضحة لا نستطيع أن ننتظر البرهان النهائي – فوهة المدفع التي تفوح منها رائحة البارود المحروق – الذي من شأنه أن يبرز في الأفق سحابة نووية على شكل نبتة فطر عملاقة".

في اجتماع فيديو آمن يوم 9 تشرين الأول/أكتوبر أوضح الجنرال فرانكس أن الرئيس، المجلس الحربي وهو كانوا لا يزالون متركزين على الخطة الحربية لغزو العراق.

قال فرانكس: "لم يقتنع الرئيس بالخطة الموجودة لدينا". كان بوش قلقاً من أن يبادر صدام وقواته إلى الانسحاب إلى العاصمة والتحصن في نوع من أنواع "قلعة بغداد" وصولاً إلى حرب شوارع مطولة. وهذا القلق كان قد تردد صداه عبر

كلام كل من رايس وكارد في اجتماعات التخطيط للحرب السرية منذ أشهر. صارت الأولوية الأولى الآن متمثلة بالاهتداء إلى استراتيجية للحيلولة دون مثل هذه الحرب.

أفاد فرانكس بأن أولوية الرئيس الثانية بعد "قلعة بغداد" كانت "مشكلة أسحة الدمار الشامل".

وتلك كانت مشكلة ماركس.

راح ماركس يستدعي المتميزين عبر تمشيطه لقوائم ترقيات الجيش بانياً صرح جهازه إلى أن بلغ تعداده 400 ضابط عسكري مع آخرين من أجهزة الاستخبارات الأخرى. وقع اختياره على الكولونيل ستيف روتكوف البالغ الـ 47 من العمر، ضابط عبير في استخبارات الجيش وعسكري منذ 25 سنة وخريج وست بوينت بعد ماركس بعامين، نائباً له. رأى الأخير أن روتكوف كان أحد أذكى الضباط في الجيش، اختياره الأول على نحو مطلق ليكون الضابط الثاني في قائمة أركان الاستخبارات.

كان روتكوف ضابطاً شاذاً، غير نمطي من نواحٍ معينة - مثقف يهودي، فأر كتب، نيويوركي بعيد عن الوقار بحاجبين كثيفين أشعثين مميزين. كذلك كان الرجل ذهبية حقيقياً يتقن فن إنجاز المهمات. كان ماركس يعرف أن روتكوف كان يتأهب للتقاعد من الجيش. لعلها نعمة؛ قد يكون شديد الرغبة في تكسير بعض الأواني الفخارية لتكين أمور معينة من أن تحصل. إيعازاته الأولى إلى نائبه الجديد كانت: "أنت صحب صلاحية مطلقة في أن تكون عالي النبرة، متجاوز الحدود وغير خاضع للأوامر".

قرر روتكوف أن يدون مذكرات يومية وخلال الأشهر الستة التالية ملأ ستة دفاتر. مضغوطاً بعامل الزمن في مناسبات كثيرة، لخص أفكاره بردات ثلاثية الأبيات من الشعر الياباني الطراز.

تقول إحدى ملاحظاته المبكرة:

رمسفلد شرطي

لن يجيز القوات التي نحن بحاجة إليها

سنبقى أخف مما ينبغي

مع قيام الجنرال ماك كيرنان بنقل مقر قيادته إلى الكويت استعداداً للحرب، خلال شهري تشرين الأول/أكتوبر وتشرين الثاني/نوفمبر 2002، استطاع روتكوف أن

يرى أن كبار الجنرالات والمخططين لم يكونوا شديدي التركيز على أسلحة الدمار الشامل. إلا أن ماركس، روتكوف وجهاز العاملين معهما كانوا يكرسون الوقت على هذه الأسحة. فلو أقدم صدام، عملياً، على شن وإنّ هجوم كيميائي أو بيولوجي صغير على القوات الأمريكية لدى عبورها من الكويت إلى العراق، لاستطاع أن يبطئ التقدم بل ويوقفه.

دأب ماركس وروتكوف على تفعيل جهازهما الذي ما لبث أن تحول إلى ورشة غارقة في بحر من العَرَق، خلية نحل حقيقية. وضعا ملف أهداف إفرادياً لكن من الموافع الـ 946، وراحا يجهدان محاولين تحسين المعلومات الاستخباراتية ترهينها بالنسبة إلى المواقع الرئيسة. تطلب الأمر لقطات أقمار صناعية جديدة وغيرها من الصور الجوية.

كان اللفتنانت جنرال الجوي مايكل في هايدن، رئيس وكالة الأمن القومي قد أمر بإعادة توجيه 300 إلى 400 مليون دولار من أموال وكالة الفضاء القومية، الناسا، إلى عمليات وأهداف "العراق الفريد". كان الجزء الأكبر من المبلغ مخصصاً للاستخبارات الميدانية. إلا أن الناسا كانت تلتقط مكالمات وصور ذات علاقة بأسلحة الدمار الشامل. برأي هايدن كانت الوكالة كمية هائلة ولكنها ظرفية وثانوية من الأدلة ذات العلاقة بهذه الأسلحة. غير أن ماركس لم يرها "هائلة"، بل وجدها مجرد نتف صغيرة، وظرفية حقاً.

بدءاً بأواخر تشرين الثاني/نوفمبر، حين سمح صدام لفريق تفتيش الأسلحة الدولي برئاسة المحامي السويدي هانس بليكس بالعودة إلى العراق، راح ماركس يلاحظ فعاليات مثيرة للريبة في عدد من صور الأقمار الصناعية. شوهد مفتشو الأمم المتحدة أمام بوابة أحد المواقع المشبوهة فيما كان العراقيون مشغولين بإخراج بعض المواد من منافذ خلفية لنقلها بالشاحنات.

تساءل ماركس: هل سبقوا كلاب الصيد بخطوة واحدة؟ هل هم محظوظون إلى هذه الدرجة؟ كيف عرفوا أن المفتشين قادمون إلى ذلك الموقع بالذات؟ أمر مرؤوسيه بمحاولة تعقب الشاحنات إلى الحدود السورية.

شكا ماركس وهو يعاين آثار إحدى الشاحنات المتجهة إلى سورية قائلاً: "لا أعلم ما إذا كانت محملة بدرّاجات هوائية من طراز تويز آر يو". ثم كرر تعبيراً عسكرياً عن العجز عن فك رموز المعنى الحقيقي "لست إلا خنزيراً يحدق في ساعة".

كان ذلك لغزاً. من ناحية، بقي منزعجاً لبقائه عاجزاً عن القول بقناعة إنه استطاع أن يثبت وجود أسلحة دمار شامل في أي موقع محدد. ومن ناحية أخرى لم يكن يساوره أي شك حقيقي حول وجودها - في مكان ما. كانت المعلومات الاستخباراتية قد ألزمته بتوقع ذلك.

بعيداً عن ماركس وبجهل منه، كان رمسفلد مشغولاً بالتصارع مع الهواجس نفسها بشأن المعلومات الاستخباراتية عن أسلحة الدمار الشامل. ففي مذكرة سرية مؤلفة من ثلاث صفحات تحمل تاريخ 15 تشرين الأول/أكتوبر 2002، أورد رمسفلد 29 احتمالاً لوقوع أخطاء في أي حرب عراقية. وقد قام باستعراض المذكرة مع الرئيس ومجلس الأمن القومي. في الوسط، أورد البند 13 عبارة: "قد تخفق الولايات المتحدة في العثور على أسلحة الدمار الشامل ميدانياً".

من الواضح أن شكوكاً جدية كانت تساوره وقد سألتُه عنها في 2006.

قال رمسفلد: "كنت شديد القلق بشأنها. أنا أقلق بشأن الاستخبارات. علي أن أفعل". في الوقت نفسه كانت الاستخبارات مسؤولية تنت وآخرين. "أصبحت واثقاً وقانعاً مع الزمن، أعتقد أن الجميع فعلوا".

هل كان على معرفة بجنرال نجمتين يدعى ماركس العنكبوت الذي كان مسؤولاً عن الاستخبارات الميدانية والذي كانت لديه شكوك حول أسلحة الدمار الشامل؟

"لا" قال رمسفلد. "أعني أننا كنا نتعامل مع عناصر القائد الميداني. ربما التقيته، إلا أنني لا أعرفه".

في تشرين الأول/أكتوبر أقر الكونغرس بأكثريته الساحقة إجازة الحرب على العراق. في الانتخابات النصفية التي جرت بعد ثلاثة أسابيع حافظ الجمهوريون على تحكمهم بمجلس النواب وسيطروا على مجلس الشيوخ - مقتنصين مقعدين في مجلس الشيوخ وثمانية في مجلس النواب. كان من النادر جداً أن يحقق حزب رئيس الجمهورية مكاسب في أي انتخابات نصفية. كان عنوان غلاف مجلة تايم "كما تصرفا في الانتخابات النصفية (والآن في الاختيارات الكبرى)" مع صورة جورج دبليو بوش المبتسم معانقاً كارل روف الضاحك في المكتب البيضوي.

في الخارجية، خشي آرميتاج من أن يكون الاندفاع نحو غزو العراق قد اكتسب قدراً لافتاً من الزخم. قال إن بوش "يعتقد بالفعل أن دوره هو تغيير وجه العالم، ذلك ما

تمخض عنه الهجوم، هجوم 9/11، متضافراً مع انتخابات الـ 2002 التي أصبح فيها رئيس الجمهورية القوي لكل الشعب، إنه تأثير انتصار الانتخابات النصفية. أخيراً صار بوش الرئيس المنتخب شعبياً".

كان آرميتاج وباول يتلقيان تقارير من قادة أجانب اجتمعوا مع بوش تقول إن الرئيس يتصرف كما لو كان حاصلاً على التأييد والمباركة. كان يقول: "علينا أن نمسك بهذه اللحظة. إنها فرصة توفرت لنا". كان آرميتاج يرى أن رايس كانت تزيد من تدخلها لمصلحة بوش "حسب ما أرى كانت كوندي تتدخل كلما بدا أي شخص غير مستعد فوراً لتحقيق ما يريده الرئيس وتنعت تصرفه بما يشبه عدم الولاء".

دوّن ماركس العنكبوت في دفتر مذكراته أن الجنرال تومي فرانكس قال لجنرالاته يوم 7 كانون الأول/ديسمبر: "لا أحد يعرف مدى الضغط الذي سأمارسه عليكم من أجل الاستيلاء على بغداد. سوف تخاطرون". تلك كانت عقدة الخطة، هناك مباشرة. الوصول إلى بغداد، وبسرعة. بدت العبارة صدى لرغبة رمسفلد - "المخاطرة". باتت عقيدة باول القائمة على السعي لضمان النجاح قيد الإلغاء. صارت الحرب السريعة، الحاسمة قيد التبني.

كان ماركس مستمراً في طلب المساعدة بشأن ملفات قوائم ومواقع أسلحة الدمار الشامل، وبشأن الفرق التي كانت ستفعل شيئاً بالنسبة إلى هذه الأسلحة خلال الحرب وبعدها. بقي دائم التساؤل عن جدوى الاقتصار على استخدام الأساليب التقنية في النظر إلى المواقع المشبوهة لأسلحة الدمار الشامل. كان يريد مضاعفة ما أطلق عليه اسد فنغرسبيتز نغفوهل - بمعنى الإحساس والفهم الغريزيين بالألمانية - بالنسبة إلى العراق، عبر عمل العنصر البشري. غير أن الوقت كان متأخراً جداً لتطوير أي موارد بشرية، ولم يكن لدى وكالة الاستخبارات المركزية وجهاز استخبارات الدفاع أي عنصر داخل العراق.

حاول ماركس تفعيل اتجهاز هناك في واشنطن، دون نجاح ذي شأن.

قال للجنرال ماك كيرنان في أحد الأيام: "لا أستطيع تحريك جهاز استخبارات الدفاع. لك أن تطردني".

لم يكن ماك كيرنان مستعداً للإصغاء. مع الزمن ما لبث ماركس أن غدا أكثر صراحة ومباشرة:

"سيدي لا أستطيع تأكيد ما هو موجود في هذه المواقع". ضاعف اهتمامه بموقع معين على القائمة، مصنع إنتاج كيميائي مشبوه. "ليس ثمة أي معلومات استخبارتية مؤكدة لأن ما يفعله هو ذلك. إنه مُعلّم على أنه كذلك وهناك حشد من الإشارات والدلة التي نستطيع رؤيتها من الصور الجوية"، ولدينا بعض التصاميم المعمارية التي تشير أنه مصمم لفعل ذلك. غير أنني لا أستطيع أن أؤكد أن ذلك هو ما يفعله اليوم في عام سيدنا المسيح الـ 2002."

"تمام" قال ماك كيرنان. "ولنتابع العمل!"

رأى ماركس ذلك تعزيزاً إضافياً لفكرة أنه هو المسؤول عن حل المشكلة. كبار ضباط الجيش أمثال ماركس كانوا قد دُربوا ليكونوا مبادرين. عبارة "لا أستطيع" لا يمكن النطق بها. عاكف هو على إيجاد الحلول، لا على الشكوى أو التماس الأعذار. كان الريس مشغولاً ولديه مشكلاته الخاصة. لعله أحد مبادئ القيادة في الجيش، وقد قام ماركس بصياغة شعار: "لا تشغل رئيسك بجحيمك الشخصي". ما أكثر ما سمعه نقيب العقيد روتكوف، إذ أورده في دفتر مذكراته بوصفه شعاراً كلاسيكياً لماركس العنكبوت بعد تعديله إلى "لا تتقاسم جحيمك الشخصي مع أحد!"

يوم الاثنين كان اليوم الأكثر إثارةً للرعب في الأسبوع بالنسبة إلى العقيد روتكوف في الكويت. مثل الآخرين، جميعاً تقريباً، كان يمضي أياماً متصلة مرتدياً ملابسه المضادة للأسلحة الكيميائية المبطنة بالفحم. جراب من النايلون فيه قناع غاز وقبعة كان مربوطاً بساقه. حتى الطبقة الأخف الأحدث للبدلة وهي المعروفة باسم جي - ليسّت كانت مزعجة وغير مريحة. ومع ذلك فإنه كان يصاب بنوبة حادة من الرعب كلما خلعها.

يوم الاثنين كان اليوم الوحيد الذي يستطيع فيه روتكوف أن يخصص 15 دقيقة في برنامجه لأخذ "دوش". وما من مرة إلا وبدا مقتنعاً بأن صدّاماً كان، في ذلك الوقت، سيشن هجوماً بالأسلحة الكيميائية والبيولوجية. كان صدام قد أطلق 88 صاروخاً من طراز سكود، بمدى يصل إلى بضع مئات من الأميال، باتجاه القوات الأمريكية في حرب الخليج الأولى و39 صاروخاً إضافياً باتجاه إسرائيل في محاولة منه لاستفزاز تلك الدولة وجرها إلى حلبة القتال وصولاً إلى تمزيق التحالف الأمريكي - العربي الذي كان قائماً في ذلك الوقت. الآن كان الجميع يتوقعون أن يهاجم مرة أخرى، مع فارق أنه هذه المرة كان سيزود صواريخ السكود برؤوس حربية كيميائية وبيولوجية.

يوماً بعد آخر كان الرعب من أسلحة الدمار الشامل مصدر إلهام الردات الثلاثية التي دأب روتكوف على تسجيلها في دفتر مذكراته:

الانتراكس + الجدري

أقنعة الغاز وبدلات الجي ليست جاهزة دائماً

مرعب أن تكون هنا

يا للهول - تمارين السكود

قناع لأربع ساعات مع تجنب العمل

وجهي غارق في بحر من العرق

ليس هذا تمريناً...

قناع + بدلة كيميائية فوراً

حاول أن تذوب من فرط الرعب

كان ذلك هو رد الفعل الغريزي، إلا أن المشكلة المستمرة تمثلت بالغياب الفعلي لأي معلومات استخباراتية مقنعة.

فيما بعد قال رمسفلد متذكراً: "كانوا كل صباح ينهضون ويرتدون بدلاتهم الكيميائية، لا استمتاعاً بها بل لخوفهم من أن يتعرض جنودهم للقتل بالأسلحة الكيميائية. ما من أحد منا كان يصدق بأنهم متوفرون على أسلحة نووية. تركز قلقنا الحقيقي الوحيد على الأسلحة الكيميائية".

النسخة الكاملة المكتوبة لخطة حرب العراق المعروفة باسم خطة أوب 1003 في اشتملت على ملحق مكرس لمهمة استكشاف أسلحة الدمار الشامل. كان ذلك نبأ سعيداً برأي ماركس. أما النبأ غير السعيد فقد تمثل بعدم وجود أي وحدة عسكرية فعلية في أي وقت من الأوقات مكلفة بتولي هذه المهمة. هذه كانت المشكلة العملياتية التي ظل ماركس يتصارع معها طوال أشهر، منذ زيارته الأولى لـ "شباب" جهاز استخبارات الدفاع "الأذكياء" في مبنى البنتاغون في تشرين الأول/أكتوبر.

بعد كثير من الجدل والعراك، وافقت قيادة فرانكس المركزية على تكليف كتيبة سُميت "قوة استكشاف المواقع الحساسة" بالمهمة. إلا أن الكتيبة كانت قوة صغيرة مؤلفة

obeikandl.com

من بضع مئات والمقدم الذي كان يتولى قيادتها كان ضابطاً دون المستوى المطلوب لقيادة مثل هذه المهمة، نظراً لأن أسلحة الدمار الشامل كانت السبب الأكثر وروداً للحرب - بدا الأمر غريباً، بل وحتى دليل إهمال بنظر ماركس. كتب في مذكراته آنذاك: "ليس ثمة مهمة أخطر أو أكثر حساسية بالنسبة إلى الأمة، غير أن وزارة الدفاع تتمادى في إغراقنا بالبرقيات/مع الإحجام عن تلبية طلباتنا - غير قابل للتصديق!"

راح يبحث عن وحدة أكبر، وما لبث أن اهتدى إلى حل في كانون الأول/ديسمبر 2002 مع جنرال في فرقة الجيش الثالثة بفورت ستل في أوكلاهوما.

قال ماركس للجنرال: "عندك لواء مدفعية سيأتي إلى هنا. نحن نفكر بجعلهم يتركون مدافعهم حيث هي ويأتون إلى هنا لتولي مهمة أسلحة الدمار الشامل بدلاً من ذلك". كان اللواء المؤلف من نحو 400 عنصر بقيادة عقيد ضخم يدعى ماكفي. تمت إعادة تسمية اللواء بسرعة وصار يحمل عنوان قوة الاستكشاف الخاصة رقم 75، وهي القوة المكلفة بمهمة العثور على أسلحة الدمار الشامل بعد دخول القوات الأمريكية إلى العراق. لم يكن ذلك إلا تدبيراً قائماً على الاكتفاء بما هو متوفر يطلق عليه الجيش اسم "الحل الميداني المناسب". أقله، أخيراً، بات أحدهم مضطلعاً بوظيفة متابعة أسلحة الدمار الشامل.

في البنتاغون، يوم الخميس الواقع في 5 كانون الأول/ديسمبر 2002، وسط عملية التخطيط الأكثر كثافة لغزو العراق، دخل ستيف هيريتس مكتب رمسفلد وبادره:

"لن تكون سعيداً بما سأخبرك به. غير أنك الشخص الوحيد الذي يحتل الموقع الفريد والذي يمكنه التسبب في جعل الرئيس يخسر إعادة انتخابه إذا لم تسارع إلى تصويب أمر معين".

اتَّقَدَ رمسفلد فضولاً.

تابع هيريتس كلامه: "بعد أن نبهتك، يتعين عليك أن تركز على التخطيط لما بعد العراق. إنها لمسألة بالغة التعقيد. لن نكون قادرين على الفوز بالسلم".

فيما بعد سألت رمسفلد عما إذا كان يتذكر الحديث مع هيريتس. "لا" قال رمسفلد. "دون أن يعني ذلك أنه لم يحصل".

كان رمسفلد مكلفاً من بوش بالإشراف على نشر مئات الآلاف من القوات الأمريكية في المنطقة المحيطة بالعراق دون إشعار العالم وصدام حسين بأن الحرب

باتت حتمية. كان الرئيس لا يزال منخرطاً في دبلوماسية الأمم المتحدة. وهكذا فإن رمسفلد اضطلع شخصياً بمسؤولية إدارة نظام التعبئة والنشر المعروف باسم تي بي اف دي دي (TP FDD) (وقائع القوة والنشر المرحلة زمنياً). ما لبث رمسفلد أن بات مؤمناً بأنه ما إن رفع صخرة كبيرة حتى وجد نظاماً فاسداً كلياً. سرعان ما أصبح شخصياً يتخذ القرارات بشأن أي الوحدات كانت ستنتشر ومتى. كان ذلك مستوى غير عادي من الإدارة الجزئية التفصيلية التي أثارت استياء الجيش وغضبه.

قام هيريتس بتنبيه رمسفلد إلى أن معاون الوزير لشؤون التخطيط فايث كان متمادياً في ارتكاب الأخطاء. صار الشجار بين وزارتي الخارجية والدفاع بالغ البشاعة إلى درجة أن الاجتماعات البينية لم تعد أحياناً أكثر من مباريات صراخ. والتخطيط لما بعد الحرب خرج عن سكّته وانحرف كثيراً إلى درجة أنه بات يتطلب تدخل الوزير شخصياً.

لم يكثر رمسفلد من الكلام إلا أنه سرعان ما دعا إلى أحد اجتماعاته السبتية المبغتة مع كل من فايث وآخرين من ذوي العلاقة.

سأل رمسفلد: "ما الذي يجري هنا؟ يتعين علينا أن نضع هذا الأمر على السكّة".

أوائل كانون الثاني/يناير 2003 كان قائد قوات المارينز الجنرال جونز وحده في مكتب رمسفلد. كان جونز هذا قد اعتذر عن إجراء المقابلة لتولي رئاسة هيئة الأركان المشتركة قبل 18 شهراً، إلا أن رمسفلد كان الآن يعطيه منصب أربع نجوم مهماً آخر - منصب المهمة المزدوجة المتمثلة بالقيادة العليا المشتركة للناتو من ناحية والقيادة الميدانية الأمريكية في أوربا من ناحية ثانية.

تأملات رمسفلد واستطراداته اكتسبت حياة في العراق بعد المعركة. كان صدام حسين قد عزل البلاد بوحشية عملياً. كيف كان الوضع هناك؟ ما الذي كان الناس يفكّرون به ويفعلونه؟ أسمع رمسفلد جونز معزوفة مدى صعوبة العثور على أي شخص في أي مكان يعرف شيئاً عن العراق، يعرف الوقائع.

علق جونز: "سبق لي أن عملت بإمرة شخص يعد بطلاً في كردستان هو جي غارنر".

منتفضاً لدى سماع اسم غارنر قال رمسفلد: "أعرفه". كان غارنر قد عمل في لجة رمسفلد الفضائية خلال إدارة كلنتون.

كان جنرال النجوم الثلاث المتقاعد غارنر قد تولى قيادة عملية توفير الراحة بعد حرب الخليج في 1991، لإنقاذ مئات الآلاف من الأكراد في شمال العراق. وعلى امتداد الأسابيع كانت عملية توفير الراحة هذه قد أصبحت النموذج الذهبي لمهمات الجيش الإنسانية.

تحدث جونز عن انه كان، وهو برتبة عقيد، قد تولى قيادة وحدة المارينز المؤلفة من 2200 جندي والمكلفة بعملية توفير الراحة. استحق غارنر حصة الأسد من الإطراء لنجاح العملية، حسب رأيه، إذ عكف على إقامة شبكات حساسة لتنقية المياه وتوفير المساعدات الإنسانية الأخرى. عموماً، كان غارنر مسؤولاً عن قوة بقيادة الولايات المتحدة مؤلفة من 20000 جندي نجحت منهجياً في إخراج قوات صدام من شمال العراق. أخيراً، ذات يوم أحد صباحاً في 1991، أقدم كولن باول، رئيس هيئة الأركان المشتركة في ذلك الوقت، على رسم خط على الخارطة مرسّخاً حدوداً جنوبية لكردستان. وبعد عملية توفير الراحة بادر الأكراد في شمال العراق إلى إقامة جيب شبه مستقل. صحيح أن صداماً ظل يهددهم بانتظام، غير أنهم، هم أيضاً، كانوا شوكة حقيقية واستثناء صارخاً بالنسبة إلى نظامه الفولاذي.

عُدَّتْ عملية توفير الراحة نجاحاً كبيراً لسبب آخر ألا وهو أن القوات التي كانت بقيادة غارنر والولايات المتحدة أنجزت مهمتها وعادت إلى البلاد في غضون أشهر.

استقر اسم غارنر في عقل رمسفلد. ومع إطالة التفكير بالأمر أكثر زاد ترسخاً. أبلغ فايث بأنه قد قرر أن يعين غارنر رئيساً لمكتب ما بعد الحرب.

يوم الخميس، في 9 كانون الثاني/يناير، كان غارنر، رئيس أحد أقسام شركة إل – 3، وهي شركة عقود دفاع بمليارات الدولارات متخصصة في مجال التكنولوجيا العالية على صعيد معدات المسح، الاستخبارات والاستطلاع، في نيويورك لحضور أحد اجتماعات الشركة. تلقى مخابرة على هاتفه الخلوي من مكتب تخطيط فايث في البنتاغون.

سأله جنرال جوي بنجمة واحدة كن مساعد فايث العسكري يدعى رون يوغي: "نريد التحدث معك. هل تستطيع أن تزورنا؟"

رد غارنر بالاستفهام عما يريدون الحديث عنه.

"إنه يتصف بشيء من الحساسية على الهاتف" قال يوغي.

رد عليه غارنر بشيء من الانزعاج: "اسمع يا جنرال، هذه هي الطريقة الوحيدة للكلام عن الموضوع". كان غارنر ذو الأعوام الـ 64، ملتهب المزاج، ربع القامة، قد تقاعد من الجيش قبل ست سنوات بعد خدمة دامت 33 سنة، بما فيها اثنتان في فيتنام.

راح يوغي يشرح محاولاً الاختصار على الخط الهاتفي غير الآمن قائلاً: "عاكفون نحن على تشكيل منظمة لتولي بعض أعمال ما بعد الحرب. أنا واثق من أنك تعرف المكان. نريدك أن تتولى إدارة ذلك، أقله تشكيله".

أوضح يوغي أن من شأن غارنر أن يؤسس المنظمة، ولكن قد لا يضطر للانتقال معها إلى داخل العراق بعد العمليات القتالية. تشكل لدى غارنر انطباع بأنه قد لا يبقى كبير المسؤولين المدنيين بعد أن تصبح عجلة الأمور دائرة.

قال غارنر: "قد لا أستطيع هذا. مشغول أنا بإدارة شركة فيها ما يزيد على 1000 شخص معتمدين علي بما يجعلني غير قادر على الإقلاع هكذا".

يوم الاثنين التالي، يوم 13 كانون الثاني/يناير، اتصل فايث بغارنر وقال له: "وجهني الوجير أن أبلغك بأن عليك إذا كنت رافضاً تولي هذه المهمة أن تأتي وتشرح موقفك شخصياً".

لم يكن أي من الرجلين بحاجة إلى إعلان ما هو واضح: من شبه المستحيل بالنسبة إلى شخص في موقع غارنر التجاري المعتمد على عقود البنتاغون أن يرفض رأياً لوزير الدفاع. والضباط المتقاعدون العاملون في الشركات الدفاعية الكبرى كانوا أشبه بفريق احتياطي من منتظري الاضطلاع بمهمات خاصة. ومما لم يثر دهشة أحد أن المدير التنفيذي لشركة إل - 3 رأى منح إجازة غياب ممكناً.

وعد غارنر زوجه، منذ أكثر من 40 سنة، كوني قائلاً "مع حلول نهاية حزيران/يوليو سأكون عائداً. سأكون هنا في احتفالنا بعيد الرابع من تموز/يوليو"(*).

(* من الوثائق، الأحاديث، التواريخ، الرسائل، التسجيلات، ملاحظاته الشخصية وملاحظات مساعده التنفيذي يتم تقديم دور غارنر هنا بقدرٍ كبير من التفصيل والإطالة لأنه كان الشخص الأول الذي حُمل مسؤولية عراق ما بعد الحرب. هذه هي الرواية الموثقة الأكمل حتى الآن لقصة تجربته نظراً لأنه قرر عدم تأليف كتابه الخاص أو الحديث مع آخرين بهذا الإطناب. تمت مقابلات موسعة مسجلة مع غارنر بتواريخ: 19 أيلول/سبتمبر 2005، 16 تشرين الأول/أكتوبر 2005، 13 كانون الأول/ديسمبر 2005، و22 نيسان/أبريل 2006. كذلك أُجريت لقاءات مع أعضاء مكتب تخطيطه لما بعد الحرب وقد وفر بعضهم وثائق وملاحظات إضافية.

في اليوم نفسه، يوم 13 كانون الثاني/يناير، قام الرئيس بوش باستدعاء وزير الخارجية كولن باول للاجتماع به مدة 12 دقيقة في المكتب البيضوي وليقول له إنه قد قرر الحرب على العراق.

سأل باول: "هل أنت متأكد؟"

أفاد بوش بأنه كان متأكداً

طرح باول نصف سؤال قائلاً: "أنت متفهم للعواقب". على امتداد ما يقرب من ستة أشهر ظل باول دائباً على طرق موضوع صعوبة وتعقيدات إدارة العراق وحكمه بعد الحرب. "أنت تعلم أنك ستصبح صاحب هذا المكان؟"

قال بوش إنه يدرك ذلك.

ثم سأل الرئيس وزير خارجيته: "هل أنت معي في هذا الأمر؟ أعتقد أن علي أن أقدم عليه. أريدك معي".

أجاب باول: "أنا معك يا سيادة الرئيس".

منعاً لأي لبس – وقد كان من المتعذر أن يكون مثل هذا اللبس وارداً بالنسبة إلى باول ذلك الجندي الطيب المطيع – بادر الرئيس إلى مصارحة رئيس هيئة الأركان المشتركة السابق قائلاً: "حان وقت ارتدائك لبدلتك العسكرية".

على مضض أقر الرئيس بأنه كان قد طلب تأييد باول على نحوٍ مباشر، إلا أنه أضاف بنوعٍ من النزق: "لم أكن بحاجةٍ إلى إذنه".

كان مدير شؤون الشرق الأوسط في جهاز العاملين لدى مجلس الأمن القومي، إليوت آبرامز، أحد المحافظين الأكثر تناقضاً، اندفاعاً وتشدداً. خلال إدارة ريغان كان مساعداً لوزير الخارجية ومؤيداً نشيطاً ومتحمساً لعمليات وكالة الاستخبارات المركزية السرية في نيكاراغوا. أقر بذنب حجب المعلومات عن الكونغرس في قضية إيران – كونترا. عفا عنه بوش الأب في 1992.

كانت رايس قد نقلت آبرامز إلى مجلس الأمن القومي حيث أضحى حمار شُغْل. جرى تكليفه بمتابعة ملف حسابات الإغاثة الإنسانية للعراق. منذ أشهر كان آبرامز يعمل مع قيادة الجنرال فرانكس المركزية، عاكفاً على تحديد قوائم المواقع المحظَّر

ضربها ساعياً إلى تجنيب المشافي، مشروعات المياه وشبكات الكهرباء خطر التعرض للقصف لدى اندلاع الحرب.

في 15 كانون الثاني/يناير، بعد يومين من قيام بوش بإبلاغ باول بأن هناك حرباً، اجتمع الرئيس مع مجلس الأمن القومي للاستماع إلى محاضرة سرية يلقيها آبرامز حول الإغاثة الإنسانية. قبل شهرين من موعد بدء الحرب المحتمل تلقى الرئيس إيجازه الرقيس الأول عن خطط ما بعد الحرب.

قد تفضي الحرب إلى تهجير مليونين من العراقيين قال آبرامز. الولايات المتحدة عاكفة على مراكمة وتخزين المواد الغذائية، الخيم والماء. لابد من إسالة الأموال بهدوء إلى وكالات الأمم المتحدة ومنظمات غير حكومية أخرى لتكون جاهزة.

أفاد آبرامز بأن العدد الدقيق للاجئين والنازحين كان سيتحدد بفعل التوترات العرقية البينية فيما بين الأكراد، الشيعة والسنة. مستوى العنف وعمليات الانتقام والثأر، وأسلحة الدمار الشامل – سواء أتم استخدامها أو ظن الناس فقط أن من المحتمل أن تُستخدم. أحد سلايدات البوربوينت بيّن كيف أن صدّاماً قد يتمكن من نسف بعض السدود وإغراق أجزاء من البلاد. إجمالاً لم تكن الصورة جذابة، بل كانت ثمة نبوءة مزعجة باحتمال حصول واحدة من أسوأ الأزمات الإنسانية في الأزمان الحديثة.

سارع بوش إلى قول: "إنها لفرصة لتغيير صورة الولايات المتحدة،" على مسامع أعضاء المجلس الحربي. لاحت له فرصة علاقات عامة. "علينا أن نباشر معظم جهود المساعدة الإنسانية هذه من خلال دبلوماسيتنا الشعبية. أريد بناء قدرة فائقة". ثم راح يصدر الأوامر: "أريد بواخر محملة جاهزة لإيصال مؤن الغذاء والإغاثة حتى نتمكن من التدخل الفوري والآني". وبعد ذلك أضاف: "ثمة أشياء كثيرة يمكن أن تتم على نحوٍ خاطئ، ولكن ليس جراء غياب التخطيط".

لم يكن غارنر، وهو الموشك على تولي متابعة ملف المهمات الإنسانية فيما بعد الحرب، قد دُعي إلى محاضرة آبرامز. في اليوم التالي، كان جالساً مع كل من رمسفلد وفليث حول طاولة صغيرة في مكتب رمسفلد.

بادره الأخير: "انظر يا جي، بصرف النظر عما قيل لك، ثمة قدر هائل ومرعب من التخطيط عبر الحكومة لهذا الموضوع". غير أن كل شيء تم "داخل الأنبوب العمودي

لمدفأة" كل واحدة من المؤسسات الاتحادية، بما فيها مؤسسة وزارة الدفاع. "نصيحتي هي أن تحاول ربط الخطط أفقياً واكتشاف المشكلات والعمل عليها مع أي أشياء أخرى تعثر عليها".

كان فايث شديد الاستياء من عواقب الحرب الأفغانية في 2001 – 2002. رأى أن وزارة الخارجية – التي كان يطلق عليها أحياناً اسم "وزارة اللطافة" – كانت قد أفسدت العملية لعدم مبادرتها إلى إشاعة الاستقرار بالسرعة الكافية. كان فايث يريد أن يكون زمامُ الأمر بيد البنتاغون في عراق ما بعد الحرب إلى أن تصبح الخارجية قادرة على افتتاح سفارة. إلى ذلك الحين كانت الخارجية ستبقى خاضعة وتابعة للدفاع.

بدا غارنر قلقاً من ضيق الوقت. قال غارنر لرمسفلد إن الولايات المتحدة كانت، في الحرب العالمية الثانية، قد بدأت تخطط لأوروبا ما بعد الحرب قبل انتهاء الحرب بسنوات. "تفترضون أن يستغرق حل هذه المشكلة مدة تتراوح بين خمسة أسابيع وعشرة أسابيع".

علق رمسفلد: "أعرف ذلك. سنصل إلى مكان ما. سنحقق شيئاً على هذا الصعيد. حاول فقط تعظيم الوقت المتوفر".

بيروقراطي البنتاغون المخضرم لمدة 22 عاماً فرانك ملر الذي كان قد خدم سبعة وزراء دفاع في بعض أكثر المناصب المدنية حساسية وعلواً، كان الآن يعمل عند رايس بوصفه كبير مدراء الدفاع في مجلس الأمن القومي. كان يرأس فريق القيادة التنفيذي الذي كان سينسق القضايا العراقية فيما بين جملة الإدارات والوكالات والمؤسسات الاتحادية. كان ملر الضخم ذو النظارات المميزة من صنف المدراء المتوسطين الجادين غير المرئيين القادرين على تشغيل أي منظمة، أشبه بحزام توقيت في محرك السيرة: حيوي ولكنه قلما يلاحَظ إذا لم ينقطع.

مع حلول بداية 2003، بدا لملر أن رمسفلد كان قد جعل عمله شبه مستحيل. كان ثمة توتر دائم بين مجلس الأمن القومي وبنتاغون رمسفلد، وصار الأخير يبالغ في السعي إلى التحكم بالمعلومات. أكثر الأحيان، لدى مجيئه إلى البيت الأبيض مع الجنرال فرانكس لتقديم تقرير موجز إلى الرئيس ومجلس الأمن القومي مع بعض أركان خطط غزو العراق، كان يحرص على توزيع السلايدات والوثائق الأخرى قبيل الاجتماع، واستعادتها فور انتهائه. وأحياناً كان يحصل أن يتم تقديم وثيقة مؤلفة من 140 صفحة إلى الرئيس مقابل عدم إطلاع الأدنى مرتبة من أمثال ملر إلا على 40 منها. ذات مرة

جاء رمسفلد إلى أحد الاجتماعات دون اصطحاب ما يكفي من حزم الإيجاز لجميع المدراء، بما أبقى رايس مضطرة إلى متابعة الإيجاز من وثائق الجالس بجانبها. كان الأمر كله صغاراً بصغار. كان من شأن السماح لملر وبعض الآخرين بالحضور أن يفسد الاجتماع جراء انشغالهم المهووس بتدوين جميع النقاط المهمة.

أحياناً كان رمسفلد يشير إلى الطرف الآخر من الغرفة في منتصف الإيجاز ويقول موبِّخاً: "لا يجوز لأحد أن يسجل ملاحظات. أقول لا يجوز لأحد أن يدوّن ملاحظات هنا".

رأى ملر أن هذا جنون مطلق. كيف كان سيستطيع تقديم المشورة إلى رايس وهدلي أو الرئيس إذا لم يتمكن من تدوين الملاحظات عن المعلومات الصادرة عن البنتاغون؟ كان ملر قد تولى الإمساك بأخطر خطط الحرب النووية وأكثرها حساسية لصدلح تشيني عندما كان الأخير وزيراً للدفاع، وكان قد كوفئ بأكبر جوائز وزارة الدفاع للمدنيين إذ مُنح وسام الخدمة المدنية المميزة للدفاع خمس مرات. شعر بقدرٍ كبير من المهنة إزاء تعرضه مع غيره من جهاز العاملين في مجلس الأمن القومي لمعاملة مواطنين درجة ثالثة مشكوك بولائهم، بل وحتى لعدم الاعتراف بالوجود من جانب رمسفلد. يضاف إلى ذلك أن ملر رأى أن في الأمر عنصراً يسهم في هزيمة الذات. ألم يكونوا جميعاً في الطرف نفسه؟

لدى مجيئه إلى البيت الأبيض برفقة الجنرالات كان رمسفلد يتحدث أولاً، مقدِّماً الجميع، وشارحاً ما كانوا سيتحدثون عنه. رأى ملر في الأمر نوعاً غير ضروري من التركز على الذات حيث بدا رمسفلد وكأنه قائد أوركسترا يقود جوقة عازفين. ورآه الجنرال ميرز أسوأ من ذلك. كان ملر وميرز صديقين قديمين، واستطاع ملر أن يرى أن صديقه كان يعاني.

في الوقت نفسه كان ملر رئيس أركان أمر واقع للجنة نواب أعضاء مجلس الأمن القومي التي كانت تضم مسؤولي درجة ثانية مثل وولفوفيتز، آرميتاج وماكلوخلين. غير أن غوضى كانت أيضاً سائدة إذ كان يعقد اجتماعات أسبوعية غير منتظمة مع كل من كار، رايس، هادلي، ورئيس جهاز نائب الرئيس تشيني، آي لويس "الدارج" ليبي، لتنبيه البنتاغون إلى الخطر ودفع العاملين فيه إلى وخز رمسفلد. ومع صعوبة الحصول على المعومات كانت أوامر رايس إلى ملر تقضي بأن يعتمد الأخير أسلوب الالتفاف. إذا كنت لا تستطيع الوصول إلى الهدف عبر القنوات المباشرة، فحاول استدعاء شخص من

معارفك واستخدام القناة غير المباشرة. عاش ملر على صلاته في البنتاغون وبين القوات المنتشرة. فخلال سنواته البنتاغونية كان ملر قد تعرف على عدد كبير من الضباط الذين باتوا الآن يزيّنون أكتافهم بالنجوم المثلثة والمربعة، وكان يعد كثيرين منهم أصدقاء له.

كانت رايس تأمر بانتظام: "نفِّذ بأي طريقة! تدبر الأمر!"

على نحوٍ لا يصدق اكتشفت رايس أن رمسفلد لم يكن أحياناً يرد على اتصالاتها الهاتفية حين كانت تطرح أسئلة عن التخطيط للحرب أو نشر القوات. شَكَتْ من الأمر لرمسفلد الذي ذكّرها بأن سلسلة القيادة لم تكن مشتملة على مستشارة الأمن القومي.

رفعت رايس شكواها إلى الرئيس.

تمثل رد بوش بمحاولة مداعبة رمسفلد.

مرة قام بوش بممازحة رمسفلد قائلاً: "أعرف أنك لا تحب الكلام مع كوندي، سير أن عليك أن تفعل".

دُهش كارد.

كان من شأن المشهد كله أن يبقى هزلياً، برأي ملر، لو لم تكن القضايا منطوية على حرب، على حياة وموت.

12

كان هادلي عاكفاً منذ أشهر على دراسة عملية نقل السلطة في عراق ما بعد صدام. شاع فيض من الكلام حول تنصيب الجنرال فرانكس حاكماً واسع الصلاحيات للعراق، وإخضاع الجميع لإمرته. غير أن المحذور تمثل باحتمال إضفاء مثل هذا التدبير ثوب الاحتلال على الوجود الأمريكي. لم يكن أحد يريد جنرال ماك آرثر جديد؛ أراد الجميع أن يروا وجهاً مدنياً للقيادة. أصيبت رايس بالذعر إزاء فكرة إبلاغ العراقيين بأنّ رئيسهم الجديد سيكون تومي فرانكس. سألت: "إيجاد ماك آثر آخر؟" كانت تعرف أن بوش والعراقيين لن يطيقوا ذلك.

ولكن ما السبيل إلى لم الخيوط، إذن؟ كان هادلي مطلعاً على حقيقة أن رمسفلد – ومعه فايث، بالطبع – كان يرى أفغانستان ما بعد الحرب مثالاً للإخفاق. وبقي رمسفلد ميالاً إلى القول بأنهم أخفقوا لأنهم وزعوا المسؤولية عن فترة ما بعد الحرب في أفغانستان عبر تجزئتها حصصاً لبلدان منفردة. تم افتراض أن تقوم ألمانيا بتدريب الشرطة. وأن تتولى إيطاليا تنظيم القضاء. حتى في إطار الحكومة الأمريكية جرى توزيع الأشياء – للخارجية مسؤولياتها، للمالية مسؤولياتها – مما أدى إلى أن تكف أفغانستان عن أن تكون أولوية أولى لأي طرف.

من رحم تلك التجربة، برأي هادلي، خَرَجَتْ فكرة فريق غارنر الوليدة. كان التعبير العسكري عن عمليات ما بعد الحرب هو مرحلة رقم 4 – "عمليات الاستقرار" – غير أن الريس كان يريد ما هو أكثر من مجرد الاستقرار في عراق ما بعد الحرب. كان يريد الديمقراطية مما جعل هادلي يدفع باتجاه اعتماد خطة شاملة لما بعد الحرب تغطي كل شيء.

كانت وزارة الخارجية دائبة منذ سنة على دراسة ما عُرف باسم مشروع "مستقبل العراق" – آلاف الصفحات من التقارير والتوصيات حول الحكم، الإدارة، النفط، القضاء والزراعة. رغم هذه الجهود، وفي تناقض مع تأكيداته اللاحقة، وافق باول على منطقية ترك مسؤولية ما بعد الحرب للدفاع. كان رمسفلد سيتوفر على عشرات الآلاف من الجنود على الأرض، على الأموال وعلى الموارد. والرجل العسكري باول بدا ميالاً غريزياً

إلى خطة قائمة على احترام مبدأ وحدة القيادة. كان لابد من وجود شخص – شخص فرد – يكون مسؤولاً آخر المطاف. كان ينبغي للأمر أن يعود إلى الدفاع. وبالنسبة إلى باول فإن هذا لم يكن أمراً غير عادي. لعله ما كان قد حصل بعد الحرب العالمية الثانية في كل من ألمانيا واليابان.

كان لدى هادلي، جهاز مجلس الأمن القومي وفايث أسبوع واحد لإعداد وثيقة قانونية تفصّل سلطة وزارة الدفاع وصلاحياتها.

في 20 كانون الثاني/يناير 2003، وقّعَ الرئيس بوش توجيهاً رئاسياً سرياً خاصاً بالأمن القومي هو توجيه الأمن القومي الرئاسي رقم 24 (NSPD-24). الموضوع: استحداث "مكتب التخطيط لعراق ما بعد الحرب" في إطار وزارة الدفاع.

لم يكن لغارنر أي مساهمة. بعد بضعة أيام حين ذهب للعمل في أحد مكاتب البنتاغون القريبة من مكتب رمسفلد، قرأ الوثيقة المؤلفة من أربع صفحات والمصنفة في خانة سري. انقطعت أنفاسه.

بدأ التوجيه بعبارات: "إذا ما بات تحالف عسكري تقوده الولايات المتحدة مضطراً إلى تحرير العراق، فإن الأخيرة ستكون راغبة في أن تكون في وضعية تمكّنها من التعامل مع جملة التحديات الإنسانية، الإنشائية الخاصة بإعادة الإعمار والإدارية التي تواجه البلد عقب العمليات القتالية مباشرة. فالمسؤولية المباشرة ستقع على كاهل القيادة المركزية الأمريكية؛ غير أن النجاح الإجمالي سيتطلب جهداً قومياً".

كان من شأن مكتب ما بعد الحرب الجديد، مكتب غارنر، أن يتولى المسؤولية عن "التخطيط التفصيلي عبر طيف القضايا التي كانت حكومة الولايات المتحدة ستواجهها فيما يخص إدارة عراق ما بعد الحرب". وهذا الطيف كان يشمل جملة القضايا الأمنية، الاقتصادية والسياسية(*). كان غارنر قد اعتقد أنه جُند للاضطلاع بدور رئيس أركان

(*) اشتملت القائمة على: (أ) توفير الغوث الإنساني؛ (ب) تفكيك أسلحة الدمار الشامل؛ (ج) تحري الشبكات الإرهابية وإلحاق الهزيمة بها؛ (د) حماية الموارد الطبيعية والبنية التحتية؛ (هـ) تيسير عمليات إعادة بناء البلد وحماية بناه التحتية واقتصاده؛ (و) مد يد العون على صعيد إعادة بناء الأجهزة المدنية المفتاحية مثل أجهزة توفير المواد الغذائية، الماء، الكهرباء والرعاية الصحية؛ (ز) إعادة تشكيل الجيش العراقي؛ (س) إعادة تشكيل مؤسسات الأمن الداخلي الأخرى؛ و(ع) دعم الانتقال إلى سلطة بقيادة العراق مع الزمن.

مجيد، إلا أن التوجيه الرئاسي لم يكن يحمّله الآن سوى مسؤولية جميع المهمات الملقاة عادةً على عاتق الإدارات القومية والمناطقية والمحلية في عراق ما بعد صدام.

قضى التوجيه بأن تبادر عشر إدارات اتحادية - جميع الإدارات من وكالة الاستخبارات المركزية ووزارة الخارجية إلى وزارتي الزراعة والتعليم - إلى انتداب خبراء تفرزهم إلى هذا المكتب. تعين على هؤلاء أن يكونوا رفيعي المستوى - عقداء، جنرالات نجمة واحدة وكبار موظفين مدنيين - متوفرين على ما يكفي من النفوذ الضروري لـ "تنسيق القضايا فيما بين إدارتهم عند اللزوم".

جاء في نص التوجيه أن "مكتب التخطيط سينتقل" في حال نشوب الحرب "إلى العراق لتشكيل نواة الجهاز الإداري الذي سيساعد في عملية إدارة العراق لمدة زمنية محدودة".

بعد أن توفر له بعض الوقت لاستيعاب مضمون التوجيه الرئاسي ذهب غارنر إلى رمسفلد.

قال غارنر: "هاك ما أعتقد أنه يتعين علينا أن نؤمّنه". كان المطلوب تأمين أشخاص مؤهلين للتنسيق بين ثلاثة ميادين كبيرة: إعادة البناء، الإدارة المدنية والشؤون الإنسانية. ثم كانوا بحاجة إلى فريق عمليات - شيء عسكري كلياً تقريباً - يتولى مهمة الإمداد اللوجستي: الغذاء، السكن، الأمن المادي والنقل. أخيراً كان يتعين عليهم أن يقسموا البلد إلى ثلاثة أقسام - قسم شمالي، قسم جنوبي وقسم أوسط يغطي بغداد وما حولها.

طرح غارنر سؤال: "هل تعتقد أن التعايش مع ذلك ممكن؟" رد رمسفلد بالإيجاب، على الرغم من أن غارنر استطاع أن يرى أن تفكير الوزير كان مشدوداً إلى الغزو الوشيك، لا إلى عواقب مثل هذا الغزو.

ما لبث غارنر أن وجد نفسه مستيقظاً من النوم في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ليباشر إملاء قوائم الأعمال المطلوب إنجازها. أدرك أنه كُلف بمهمة مستحيلة غير أن موقف لعسكري القادر على اجتراح المعجزات تغلب على الشك. قال لي لاحقاً: "آمنت بأن هذا سيكون بالغ الصعوبة". غير أنه أضاف: "لم يسبق لي أن أخفقت في أي شيء".

مساء السبت الواقع في 25 كانون الثاني/يناير 2003، حضر الرئيس بوش حفل عشاء نادي ألفا ألفا السنوي التسعين، وهو طقس مستورد من العالم القديم متميز بربطات العنق السوداء يحمل اسم نبات مستعد لأي شيء مقابل الحصول على المزيد من الشراب. كان حفل العشاء الذي عُقد في فندق هلتون العاصمة على مسافة بضع

مئات من الأمتار من البيت الأبيض حشداً لبضع مئات من المشبوهين العاديين المنتسبين إلى عالمي السياسية والأعمال بمن فيهم أم الرئيس وأبوه.

في تعليقات وجيزة، أبلغ الرئيس بوش الجمهور أن أمه حذّرته من المزاح عن مغتشي الأسلحة الدوليين في العراق، ومن التفوه ولو بكلمة واحدة عن كوريا الشمالية.

"لذا قلت أخيراً: "لماذا لا تتولين أنت، إذن، مهمة إلقاء الخطبة اللعينة؟" وهكذا أقدم لكم أيها السيدات والسادة أمي".

صعدت باربارة بوش، الثعلبة الفضية كما يلقبها زوجها، ذات الـ 77 ربيعاً منصة الخطابة وقالت: "لا أحد يصدق هذا، ولكنه كان الولدَ المثالي. كان يرتدي زي رعاة البقر.... ويلهو ساعات طويلة وهو مشغول بمطاردة الأوغاد، أو "محور الشر" كما كان يسميهم". يُذكر أن بوش كان، في خطاب حالة الاتحاد عام 2002، قد أطلق عبارة "محور الشر" على مثلث إيران، العراق وكوريا الشمالية.

"لن أنسى الورقة التي كتبها في الصف الرابع مبيناً أن فيرديناند ماجلان انطلق عام 1519 لـ "ختان [تطهير] العالم"". ثارت عاصفة من التصفيق دامت بعض الوقت مع موجة من هتافات الاستحسان.

وبعد ذلك، توغلت السيدة الأولى السابقة في الحشد الكبير وأمسكت بصديق قديم للعائلة هو ديفد إل بورن عضو مجلس الشيوخ الديمقراطي الوسطي السابق من أوكلاهوما الذي سبق له أن تولى رئاسة اللجنة المختارة للاستخبارات خلال عهد الرئيس جورج اتش دبليو بوش. وبورن هذا هو الآن رئيس جامعة أوكلاهوما وإن كان لا يزال على صلة وثيقة بواشنطن، ولاسيما عبر جورج تنت في وكالة الاستخبارات المركزية، الذي سبق له أن عمل لدى بورن في لجنة الاستخبارات. كان تنت قد أثّر في بورن كثيراً، فأصبح الأخير ولي نعمته موصياً به لدى الرئيس كلنتون ومن ثم لدى جورج دبليو بوش أوائل 2001.

كان بورن وبوش الأب يعرف كل منهما الآخر منذ عقود كما كانا صديقين حميمين.

"كنت على الدوام تقول لي الحقيقة،" بادرت باربارة بوش منتحية ببورن جانباً لإجراء حوار خاص.

"صحيح سيدتي،" رد بورن.

"هل ستصدقني القول لآن؟"

"بالتأكيد".

"هل نحن على صواب في قلقنا إزاء موضوع العراق هذا؟"

"نعم، أنا نفسي شديد لقلق".

"هل تظن أنه خطأ".

"نعم، سيدتي". أجاب بورن "أعتقد أنه خطأ كبير أن نقتحم الآن، بهذه الطريقة".

"أبوه قلق بالتأكيد ولا يعرف معنى النوم من فرط القلق. لا ينام الليل من انشغال البال".

"لماذا لا يفاتحه؟"

"يعتقد أن عليه ألا يفعل ما لم يُسأل". قالت باربارة. تلك كانت المسافة الفاصلة بين الأب والابن أفادت السيدة، ولم يكن ميالاً إلى الاقتناع بأن عليه أن يتطوع.

رد عليها بورن قائلاً: "حسناً، أنا أتفهم شعور الأب إلا أنه رئيس سابق للولايات المتحدة وخبير في هذا المجال".

هزت باربارة بوش رأسها بوقار، يكاد يصل إلى مستوى الرثاء.

لاحقاً، تبادل بورن التحية مع بوش الأب. سأله رئيس الجمهورية السابق:

"هل ترى صديقنا المشترك كولن؟"

"أحياناً فقط".

"لا تنسَ أن تبلغه أنني واثق من أنه يقوم بعمل جيد".

الرجلان، كلاهما، كانا يعرفان أن باول كان مقاتلاً رغماً عنه، دائباً على السعي لحل مشكلة العراق بالطرق الدبلوماسية.

نعم سيادة الرئيس قال بورن. "بالتأكيد سأفعل وأنا متأكد من أنه هو أيضاً يرى رأيك".

كان نائب الجنرال فرانكس، اللفتنانت جنرال جون أبي زيد، كبير خبراء الجيش الأمريكي العسكريين في شؤون الشرق الأوسط. وأبي زيد الملتحق بصف الوست بوينت لعام 1973 الذي فاته قطار فيتنام للتو هذا الذي تمت مسرحة تجربته في غرانادا في فيم هارتبرك ريدج (1986) لكلنت ايستوود، كان قد تابع دراساته العليا المتفرغة في كل

من هارفارد والجامعة الأردنية بعمان. كان قد تعلم اللغة العربية وتمت زيارته الأولى للعراق أواخر سبعينيات القرن العشرين.

بوصفه مديراً للأركان المشتركة خلفاً لنائب الأميرال فراي في 2001 – 2002، عان أبي زيد قد اختبر الطاقة الكاملة لتفجر نفاد صبر رمسفلد، وكثيراً ما تلقى موجات التوبيخ وهو غارق في التأمل وقد قال أبي زيد لأحد زملائه: "أحياناً كان لطيفاً، وأحياناً أخرى لم يكن كذلك عند نفاد صبره. أنا معجب بالرجل كثيراً وإن لم أكن أحبه بالضرورة... لعل نقطة ضعفه هي رغبته في وضع يده على كل شيء. واضح؟"

في 2003 كان أبي زيد يتبادل أطراف الحديث غير الرسمي مع ماركس العنكبوت في إحدى القواعد الأمريكية في الصحراء الكويتية. تطرق الكلام إلى قائمة مواقع أسلحة الدمار الشامل الرئيسة.

لافاً كتفي رئيس استخبارات القوات البرية بذراعه سأل أبي زيد: "ما رأيك يا عنكبوت؟ ما رأيك بصدق بمواقع أسلحة الدمار الشامل هذه؟"

"لا أوليها أي أهمية" قال ماركس. كان ذلك جواباً وقحاً لجنرال مرتبة عالية، غير أن ماركس كان يعرف أبي زيد منذ كانا طالبين في الوست بوينت، وأحس بأن الرجل كان راغباً في الحصول على رأي صادق: "سواء أكانت موجودة أم لا – ينبغي أن أكون صادقاً معك لا أستطيع تأكيد وجودها – غير أنني أبقى، سواء أكانت موجودة أم لا، ملزماً بأن أفعل شيئاً بذلك الموقع. سيتعين علي أن أخاطر بحيوات رجال ونساء أمريكيين للوصول إلى هناك وفعل شيء بذلك الموقع".

كانت تلك إعادة صياغة صارخة للمشكلة. دوّن كل من عنصري الوقت والموارد اللازمين للتوصل بثقة إلى معرفة ما إذا كانت أي أسلحة دمار شامل موجودة في مواقع القائمة الـ 946 أم لا، كان ماركس ملزماً بالتحرك من فرضية أنها موجودة. بالنسبة إلى الجنرالات الذرائعيين على الأرض الذين كانوا متأهبين لشن حرب على أسلحة الدمار الشامل المزعومة لدى صدام حسين، كان البرهان المصفح مئة بالمئة على وجود الأسلحة متضائل الأهمية مع مرور الزمن.

في 1991، كان أبي زيد، وهو مقدم، قائد كتيبة تابعة لقيادة غارنر في عملية توفير الراحة. كان غارنر يعتقد بأن أبي زيد كان يعرف العقل العسكري من ناحية والعقل

العربي من ناحية أخرى معرفة جيدة مما دفعه إلى استدعائه في وقتٍ مبكر للتشاور معه. دوّن سلسلة ملاحظات عما قاله مرؤوسه السابق. "**ما يتعين علينا فعله هو تمكين الجيش العراقي من الخروج بشيء من ماء الوجه**". كان الجيش سنياً بأكثريته ومن غير الجائز جعله يشعر أنه خسر كل شيء.

فيما بعد، أقر رمسفلد، في إحدى المقابلات، باتفاقه مع مقاربة أبي زيد. "كان ذلك هو رأيه بالسنة، وشعر بأننا كنا نفقد السيطرة على البلد وبقي دائم المطالبة بجعل القرارات منصفة وممثلة لهم".

وافق غارنر. تمثلت الفكرة باستخدام الجيش العراقي المهزوم في إعادة البناء، من إعادة بناء الجسور إلى توفير أمن الحدود والبناء. اشغله. أي جيش عاطل عن العمل من شأنه أن يكون مشكلة.

حذره أبي زيد بأن الجزء الصعب من المسألة سيكون بعد إلحاق الهزيمة بالجيش العراقي. في أعقاب ذلك "سيكون ثمة فيض من الأعمال الإرهابية" برأي أبي زيد "سكون ثمة أشياء كثيرة لابد من التصدي لها – شعب ساخط، جيوب مقاومة ونشاط حرب عصابات".

قبيل نهاية كانون الثاني/يناير التقى غارنر ورئيس أركانه، الزميل المتقاعد جنرال الجيش بثلاث نجوم، جاريد بيتس الجنرال فرانكس في البنتاغون. كانوا أبناء جيل واحد. سبق لهم جميعاً أن كانوا قادة كتائب في ألمانيا خلال ثمانينيات القرن العشرين. اتفقوا على منطقية قيام غارنر وفرانكس بتقديم تقاريرهما إلى رمسفلد مباشرةً.

قال فرانكس لغارنر: "كلانا يعمل عند الرئيس نفسه،" مضيفاً أنه كان مهتماً بعملية مجلس الأمن القومي حيث كانت الوزارات والإدارات والوكالات المختلفة تحاول اجتراح نوع من الإجماع. "ما يتعين عليك فعله هو تحريري من عبء الوكالات المتداخلة لبعض الوقت،" قال فرانكس، "غير أن من الضروري أن تبقيها مترابطة حيث لا تكون مخربة". وعد بنقل غارنر وفريقه إلى داخل العراق بعد الانتهاء من المعركة الكبرى. إلا انه قدم تقييماً منطقياً. قال: "لا اعتقد أيها الشباب أنكم ستكونون هناك قبل نحو 60 إلى 90 يوماً". رأى غارنر وبيتس، كلاهما، أن تلك كانت فترة طويلة، مدة انتظار أطول مما ينبغي، غير أن أياً منهما لم ينبس ببنت شفة.

في 28 كانون الثاني/يناير التقى غارنر زلماي إم خليل زاده، كبير مدراء مجلس الأمن القومي لشؤون الخليج، في مبنى مكتب آيزنهاور التنفيذي المجاور للبيت الأبيض. وخليلزاد هذا كان قد ولد وترعرع في أفغانستان وحصل على شهادة الدكتوراه من جامعة شيكاغو. كان يُعَدُّ محافظاً جديداً، نظراً لعمله السابق مع وولفوفيتز في إدارتي ريغان وبوش الأب.

تحدث خليلزاد قائلاً: "نحن بحاجة إلى تشكيل فريق استشاري مؤلف من حكماء ينصحوننا بما ينبغي عمله من أجل نقل إدارة حكم العراق إلى الشعب العراقي". من جميع أحاديثه مع سائر الآخرين حتى الآن، كان غارنر قد كوّن الانطباع المتمثل بأن خطة الولايات المتحدة كانت ترمي إلى تشكيل حكومة مؤقتة. كان خليلزاد عنصر الإدارة الأول الذي نفى الأمر من أساسه قائلاً: "لا، لسنا بحاجة إلى حكومة مؤقتة. ما نحن بحاجة إليه هو تمكين العراقيين من حكم أنفسهم بأقصى سرعة ممكنة".

علق غارنر: "أنا متفق معك". تشجع من الحوار الذي تقاطع مع فكرته القائمة على المسارعة إلى نقل السلطة مباشرةً إلى العراقيين. لقد اهتدى إلى حليف.

في الأسبوع الكامل الأول من شباط/فبراير 2003، طار غارنر وبيتس إلى العاصمة القَطَرية الدوحة، حيث مقر قيادة القيادة المركزية لعقد اجتماع مطول مع فرانكس وأبي زيد. كان ذلك أسبوعاً عسكرياً خاصاً بالنسبة إلى الجميع. شعر بيتس بقدرٍ استثنائي من القرب والحميمية مع أبي زيد. سبق له أن كان رئيسه في لواء الاقتحام الـ 75، متولياً منصب نائب قائد إحدى كتائب الاقتحام حين كان أبي زيد ملازماً أول شاباً نسبياً في الوحدة ذاتها. يبقى العقداء والرواد أولياء نعمة النقباء والملازمين الأولين في الجيش، وأي ضابط كبير سابق يتمتع بمكانة دائمة في النادي العسكري.

درج فرانكس على وصم دوغ فايث بـ "أغبى الأوغاد وأبلد الفاعلين بأمهاتهم على وجه الكرة الأرضية". قال لكل من غارنر وبيتس: "أنا مرتاح جداً إلى توليكما، أنتما الاثنين، المسؤولية".

مرةً أخرى كرر رغبته في أن يحرراه من عبء واشنطن. قال: "نحن نفهم الشاحنات ووحدات تنقية الماء بالتناضح" مشيراً إلى العمليات القادرة على مص الماء الملوث من النهر وقذف آلاف الغالونات من الماء الصالح للشرب. كان فرانكس متركزاً على القضايا الإنسانية الأساسية.

رأى بيتس أن أبي زيد كان يدرك مكامن الصعوبة المحتملة بدقة. فاختصاصي الشؤون العربية في الجيش كان متركزاً على عراق ما بعد الحرب – ما الذي كان يتعين فعله وبأي قدرٍ من السرعة.

قال أبي زيد بضرورة إيجاد حكومة. "يتعين علينا أن نلبسها ثوباً عراقياً. لابد لها من ن تكون متعددة الأعراق". كان لابد لأي حكومة عراقية من أن تضم جميع العراقيين، لا السنة، الشيعة والأكراد وحسب، بل والعشائر والطوائف، كما قال. وأضاف أن العراقيين لا يحبوننا ولن يكونوا راضين عن بقائنا في بلدهم. قدّر بيتس حقيقة أن أبي زيد لم يرغب في اختزال المسألة إلى مجرد مشكلة شعارات بسيطة.

غير أن أبي زيد عبّر عن الاستياء من الطريقة التي كانت واشنطن تعتمدها للسير قدماً في فترة ما بعد الحرب. وإحدى الثرثرات الفارغة التي كان يسمعها كثيراً تمثلت بمدى كره البنتاغون لحزب البعث الصدّامي. قد يكون البنتاغون على حق. غير أن أي شخص راغب في الحصول على وظيفة محترمة في عراق صدام، ولاسيما في أجهزة الدولة، كان مضطراً اضطراراً شبه كامل لأن يكون عضواً في حزب البعث. أفاد أبي زيد بأن الولايات المتحدة كانت ستضطر إلى إشراك أعضاء في حزب البعث في الحكومة الجديدة.

في اجتماع مع أبي زيد وعدد كبير من كبار العاملين في مقر القيادة المركزية بقَطَر ذلك الأسبوع، بيّن غارنر أنه كان يخطط لتعقب الوحدات القتالية المتوغلة في العراق مباشرةً.

حقاً؟ تساءلت إحدى ضباط الأركان بينها وبين نفسها. كانت هذه هي العقيد كارول ستيوارت رئيسة قسم التخطيط الاستخباراتي في القيادة المركزية. تساءلت عما إذا كان غارنر متفهماً أن الخطة لم تكن تتضمن الاستيلاء على المدن والاحتفاظ بها. نحن لا نخطط لاحتلال البصرة والناصرية. نحن ذاهبون مباشرةً إلى بغداد.

سألتْ ستيوارت: "من الذي يوفر الأمن في العراق؟" عبر غارنر عن توقعه لأن تبقى الشرطة العراقية مستمرة في عملها. لم يبد الأمر صحيحاً على الإطلاق بنظر العقيد، ولكنها آثرت الصمت لوجود عدد كبير من ضباط الرتب العالية في الغرفة.

خلال الأشهر القليلة الماضية كان قسم ستيوارت للخطط الاستخباراتية قد حاول تقدير أعداد القوات التي ستكون مطلوبة للاضطلاع بمهمة حفظ السلام في العراق،

استناداً إلى تجربة الجيش في البوسنة وكوسوفو. بلغت التقديرات 450.000. غير أن أحداً لم يكن يفكر بمثل ذلك الحجم من القوات، مما اضطر القسم إلى دراسة خيارات أخرى. ماذا لو تم التركيز على احتلال المدن العراقية المفتاحية بدلاً من الاستيلاء على البلد كله؟ تم التوصل إلى استنتاج يقول بأن الأمر سيتطلب في الحدود الدنيا قوة مؤلفة من 60.000 شرط أن يكون الوضع العراقي الذي ينتظر القوات الأمريكية مماثلاً مئة بالمئة مع موافقة العراقيين الكاملة على احتلال أمريكي. أما في الحدود القصوى المقابلة، مع انبثاق فيض من المعارضة والتقاتل فيما بين الجماعات العرقية العراقية. فقد قُدر العدد المطلوب من القوات أن يكون متراوحاً بين 180.000 و200.000 لضمان أمن المدن الـ 26 أو 27 الأكثر أهمية.

في وقتٍ لاحق من ذلك اليوم، في اجتماع أضيق مع غارنر وضباط كبار آخرين. تحدثت ستيوارت بقدرٍ أكبر قليلاً من الحرية. أكدت أن تقديرات استخبارات القيادة المركزية كانت تفيد بأنه لن يكون ثمة أي شرطة عراقية عاملة بعد التوغل الأمريكي.

سألها أحد الجنرالات: "ما الذي تعنيه بعدم وجود أي شرطة؟"

ردت ستيوارت "لعل الوضع شبيه بينما، مشيرة إلى الاجتياح الأمريكي لذلك البلد بقوة مؤلفة من نحو 24.000 جندي. ما إن كان الأمريكيون قد أطاحوا بالحكومة والجيش المحلي، حتى كانت قوة الشرطة قد تلاشت من الوجود. كان من شأن الشيء نفسه أن يحصل في العراق.

التفتَتْ إلى غارنر وقالت: "قبل قليل حدثتنا عن تعقب الوحدات القتالية. ليست تلك فكرة صائبة".

ثمة كانت أنباء أكثر صعوبة. فأحد الضباط أشار إلى أن جهة ما كان سيتعين عليها أن تستمر في دفع الرواتب إذا ما تقرر إبقاء عناصر الشرطة والموظفين على رأس عملها بعد الاجتياح.

التفت غارنر إلى بيتس وقال: "سيتعين علينا أن نعود إلى التيار المتواصل (إلى الدي سي) للحصول على دفتر للشيكات".

بقي بيتس على اتصال مع أبي زيد في الأشهر التالية وقد عقدا سلسلة من الاجتماعات. ظل أبي زيد يعبر عن الهلع بالنسبة إلى واشنطن. كان ذلك أكثر من رجل

ميدغي يعبر عن الشكوى الكلاسيكية من مقر القيادة. بعد أحد الاجتماعات الرسمية دار بين بيتس وأبي زيد حوار ودي بوصفهما صديقين قديمين. قال أبي زيد: "اعلم أن هؤلاء الأوغاد في واشنطن ليست لديهم أي فكرة عما هم عاكفون على القيام به من عمل، وأعتقد أنني سأتقاعد. لا أريد أن أضطلع بأي مزيد من الأدوار في هذه العملية".

obeikandl.com

obeikandl.com

13

بدا نائب الرئيس تشيني مقتنعاً بفكرة وجود علاقة ما بين صدام والقاعدة، غير أن وكالة الاستخبارات المركزية لم توافقه. كان تنت وعناصره قد عاينوا المعلومات الاستخباراتية بأكبر قدرٍ ممكن من الشمول. أفاد تنت، بوضوح، بعدم وجود أي برهان. صحيح أن أردنياً يدعى أبا مصعب الزرقاوي، ذا علاقة قوية بالقاعدة، كان متورطاً في نشاطات إرهابية مختلفة داخل العراق، إذ كان قد مُنح ملاذاً من قبل صدام، غير أنه لم يكن ثمة أي دليل يبين أن صداماً نفسه، أو أحداً يمثله، أو شخصاً من أجهزة العراق الاستخباراتية أو الأمنية، كان متورطاً مع الزرقاوي.

قال تنت: "لا أستطيع قول ذلك بأي مرجعية، توجيه وانضباط". ذلك كان المستوى الرفيع المطلوب من القناعة لتأكيد صحة أي زعم بوجود علاقة بين صدام والقاعدة.

كان من المقرر أن يَمْثُل باول أمام الأمم المتحدة في 5 شباط/فبراير 2003 لتقديم معلومات استخباراتية عن أسلحة دمار شامل مبرِّرة للحرب، وأراده تشيني أن يلقي نظرة على الخطاب الذي كان رئيس جهاز العاملين لديه، ليبي سكوتر، قد أعده عن وجود علاقة بين صدام والقاعدة. تضمن الاتهام أن محمد عطا، قائد هجمات 9/11، كان قد التقى ضابط استخبارات عراقياً ما لا يقل عن أربع مرات في براغ. كانت وكالة تنت الاستخباراتية المركزية قد توصلت إلى بعض المؤشرات الدالة على حصول لقاء أو اثنين، ولكن شيئاً لم يتأكد. في النهاية كانت الوكالة قد استنتجت أنه لم يكن ثمة أي دليل على حصول ولو لقاء واحد.

كان باول مقتنعاً بعدم وجود علاقة مع عطا ورفض إيراد الأمر في خطابه. كذلك حاول التخفيف من الإشارات إلى الزرقاوي في كلمته المقبلة في الأمم المتحدة. خطط أن يكتفي بمجرد الكلام عن احتمال وجود نوع من العلاقة بين العراق والقاعدة.

تابع نائب ماركس العنكبوت، العقيد روتكوف، خطاب باول في الأمم المتحدة يوم 5 شباط/فبراير على شاشة التلفزيون في الصحراء الكويتية. رغم اطلاعه المباشر على

وضع ملفات الأهداف ذات العلاقة بأسلحة الدمار الشامل لم يكن لدى العقيد في الحقيقة أي شك بتوفر صدام على الأسلة المحظورة. رؤيته لباول، وهو جنرال النجوم الأربع المتمتع بقدرٍ واسع من الاحترام في الجيش، موظفاً صدقيته لتوجيه الاتهام، لم تفد إلا في زيادة قناعته رسوخاً. لم يكونوا متوفرين على أي دليل مقنع مئة بالمئة.

في الكويت، خلال فترة انتظار الحرب، درج روتكوف، كل يوم أحد، على عقد اجتماعات مغلقة محصورة بالمدعوين لأفضل ضباط ورشة استخبارات ماركس العنكبوت. وهذه الاجتماعات التي ما لبثت أن أصبحت تُعرف باسم "جلسات صلاة بعد ظهر الأحد،" كانت لقاءات عمل مسلية لتناول البيزا والبيرة المخففة تشجيعاً لإجراء مناقشات حرة غير رسمية للأفكار الجديدة. إن ماركس العنكبوت والجنرالات الآخرين لم يكونوا يُدعون على الإطلاق كي لا يتوجس الضباط من انتهاز الفرص، التفكير بصوت مرتفع أو البوح بشيء غبي أمام الرؤساء.

ذات يوم أحد أوائل عام 2003، وجه العقيد ستيف بترسون، وهو ضابط ذكي من الجيش مشهور بنمط تفكيره الإبداعي، سؤالاً إلى روتكوف عما إذا كان يستطيع أن يتولى إمامة جلسة العبادة.

بدأت محاضرة بترسون القوية بعبارة "استراتيجية "إسقاط الصقر الأسود" الخاصة بصدام حسين". كانت الإشارة إلى كتاب **إسقاط الصقر الأسود** الشهير من تأليف مارك باودن عن هزيمة الـ 1993 الصومالية حين قُتل 18 جندياً أمريكياً في معركة قتال شوارع، تلك الهزيمة الفضائحية التي دفعت الرئيس كلنتون إلى سحب القوات الأمريكية. كانت الصومال قد أصبحت رمزاً لعزوف أمريكا الواضح عن تكبد الخسائر البشرية.

اقترح بترسون أن من شأن الفرضية العملياتية القائمة على استراتيجية احتمال انسحاب صدام إلى القلعة البغدادية أن تكون باطلة من الألف إلى الياء. ماذا لو فكر صدام، بدلاً من ذلك، بإذابة وحداته لتعود إلى الظهور وتوجيه ضربات عشوائية ومتفرقة إلى القوات الأمريكية وصولاً إلى خلق حركة عصيان طويلة الأمد؟ من المؤكد أن صداماً كان يعرف أن القوات الأمريكية متفوقة من حيث المعدات، الرجال والتكتيكات. وهي قادرة، بالتالي، على النفاذ إلى بغداد القلعة. ولكن ماذا لو تحلى صدام بشيء من الذكاء ورأى أن استراتيجيته الفضلى تمثلت بجعل العراقيين يتنون

حملة هجمات صغيرة، معقدة ومتطورة - نوعاً من الإرهاب المدني العشوائي المتواصل؟ عندئذ كان من شأن القوات الأمريكية أن تضطر إلى التصارع مع أعمال عنف لانهائية، مع عدم معرفة الجهة المنفذة أو الجهة التي ستأتي منها الضربة وفي أي توقيت.

أفاد بترسون بأن فرضيته كانت مستمدة من الاعتبارات التالية:

أولاً، ثمة معلومات استخباراتية أمريكية بَيَّنَتْ أن صداماً كان قد أمر بترجمة كتاب **إسقاط الصقر الأسود** وتوزيع نسخ منه على كبار ضباطه. وقد دأبنا على افتراض أن الأمر كان لرفع معنويات كبار القادة عنده عبر طمأنتهم إلى أن من شأن قتل عدد قليل من الأمريكيين أن يدفع الولايات المتحدة إلى العودة من حيث أتت. ولكن ماذا إذا كان الدرس الذي استخلصه صدام من كتاب **إسقاط الصقر الأسود** متمثلاً بأن أعداداً من المتمردين يمكنهم أن يحققوا نجاحات تكتيكية محلية ضد قوة عسكرية متفوقة كثيراً؟

ثانياً، في تشرين الأول/أكتوبر 2002 كان صدام قد فتح أبواب سجون العراق مطلقاً سراح عشرات آلاف السجناء - السياسيين والمجرمين العاديين. ماذا إذا كان الهدف هو دفع هؤلاء إلى تشكيل عصابات من مثيري أعمال الشغب أو التحول إلى مخربين أفراد؟

ثالثاً، ثمة وفرة من الأدلة المؤكّدة لوجود مخازن أسلحة تقليدية موزعة في طول البلاد وعرضها - أسلحة نارية ومتفجرات، من الأنماط المناسبة تماماً للمتمردين.

رابعاً، كان تنظيم حزب البعث الصدّامي في كل بلدة ومدينة شبيهاً بالبنية الخليوية الشيوعية الكلاسيكية، وهي بنية قائمة على روابط شخصية وغير رسمية، فضفاضة فعالة جداً في حركات التمرد وحرب العصابات.

أضاف بترسون: إذا أخذنا ذلك كله بنظر الاعتبار فإن استراتيجية صدّامية منطقية قد تكون متمثلة بالهرب والتخفي، والمبادرة إلى توظيف بنية حزب البعث الخليوية لاجتراح جيش متمردين متوفر على كميات من الأسلحة والمتفجرات كافية لمتابعة حرب طويلة إلى أن يتم إرهاق الأمريكيين وكسر إرادتهم السياسية.

بدت نظرية بترسون جذرية. شكلت صفعة لجميع الخطط الحربية التي بُنيت على مقولة هزيمة سريعة لجيش صدام. كان روتكوف يدرك أن طرح احتمال مناقض وخصوصاً في هذه المرحلة المتأخرة من لعبة التخطيط متطلب لقدرٍ كبير من الثقة.

الجميع في غرفة الصلاة بدوا مقتنعين بأن الأمر كان قابلاً للتنفيذ بسهولة. وبالتالي فإن "استراتيجية إسقاط الصقر الأسود" لم تكن إلا نظرية أخرى.

في 14 تشرين الأول/أكتوبر اجتمع الرئيس مع مجلس الأمن القومي وفرانكس. طُرح سؤال حول حماية آبار النفط العراقية في أثناء الاجتياح وبعده.

سأل الرئيس: "كيف تحسمون أمر الاحتفاظ بعناصر شرطة محليين؟"

كان فرانكس مطمئناً. وفقاً لملاحظات أحد الذين حضروا اجتماع مجلس الأمن القومي قال الجنرال لبوش: "لقد عينت قادة شرطة لسائر المدن العراقية. حندي القوات اللازمة لتطبيق هذا غداً،" بمعنى وجود عراقيين مستعدين لتولي إدارة الشرطة.

تحدث غارنر مع اللفتنانت جنرال جورج كيسي، مدير هيئة الأركان المشتركة، ليطلب منه 94 شخصاً لعمليات ما بعد الحرب. في الفترة من 2004 إلى 2006 كان كيسي، بعد أن أصبح جنرال أربع نجوم، سيتولى قيادة القوات الأمريكية في العراق.

رد كيسي: "العدد كبير. دعني أفكر".

أصر غارنر ورئيس أركانه بيتس على الطلب، وضغطا على كيسي.

قال بيتس: "انظر يا جورج. الزمن يضغط علينا. لابد من أن نحصل على هؤلاء الناس. هل قمت باستدعائهم؟"

"لا" رد كيسي "لم أفعل لأنكما تحاولان إقناعي بأن العملية عملية 7/24 (24 ساعة/7 أيام) وأنا لا أصدق".

تدخل غارنر قائلاً: "يبدو أنك فقدت عقلك يا جورج. لا تصدق أنها عملية 7/24؟"

"لا" كان جواب كيسي.

اتصل غارنر بكيسي ثانية: "اسمع يا جورج. إننا في أوقات عصيبة". أقترح اجتماعاً في مكتب رمسفلد في الساعة الخامسة من مساء ذلك اليوم. "سنحسم هذا الأمر بحضوره وأمامه، لأن من الضروري أن أحصل على هؤلاء الناس".

بعد نحو ساعة اتصل رئيس جهاز العاملين في هيئة الأركان المشتركة بغارنر وسأله: "كم عدد العناصر الذين تحتاج إليهم؟"

من حيث الجوهر، كان غارنر، وهو المكلف بالمسؤولية عن مجمل قضايا عراق ما بعد الحرب، صاحب المسؤولية الأهم التي كانت الحكومة الأمريكية موشكة على الاصطلاع بها، يُجبَر على تشكيل فريق لملمة مؤلف من بضع مئات وعلى ممارسة أساليب الاستجداء، التملق والتهديد للحصول على لاعبيه.

في 2006 ذكرتُ لرمسفلد أنني مؤمن بـ "أن الحكومة، لسببٍ ما، ألقت على عاتق فريق لملمة عبء أهم وظائفها". وسألته: "أين الإنصاف؟"

أجاب: "لن أتفق معك" مضيفاً أن عدداً كبيراً من الموهوبين تطوعوا، ذهبوا إلى العراق، ونفذوا المهمات الشاقة. "لا يمكنك أن تزدري وتقول فريق لملمة. لم يكن ذلك فريق لملمة على الإطلاق". رأى أن التاريخ لن يغفر لي إذا ما فعلت. ثم أضاف، محاولاً تقليد صوت نكسون: "من شأن ذلك أن يكون خطأ، كما يقول صديقك القديم".

قام غارنر أيضاً بتجنيد عقيد متقاعد من الجيش سبق له أن كان المؤرخ الرسمي لعملية توفير الراحة في 1991 يدعى غوردون راد. كان الأخير حائزاً على شهادة الدكتوراه ومقيماً في مكان قريب من قاعدة قوات المارينز في كوانتيكو الفيرجينية حيث كان أستاذاً في كلية القيادة والأركان. للعمل مع غارنر تعين عليه أن ينطلق من بيته في التسعة الخامسة صباحاً لمراوغة حركة المرور الفيرجينية الصعبة وصولاً إلى البنتاغون، ليعمل لمدة 14 ساعة في اليوم، وجعل المهمة تستهلك حياته كلها من الأساس.

في إحدى قاعات البنتاغون ناداه غارنر وطلب منه: "اكتب لي ورقة عما يجب علينا أن نفعله بالجيش العراقي يا غوردون".

استمهل راد يوماً واحداً، ذهب إلى المكتبة، وقرأ كل شيء استطاع العثور عليه عما كانت الولايات المتحدة قد فعلته بالجيش الألماني والياباني بعد الحرب العالمية الثانية. كذلك قام بالاطلاع على الأسلوب الذي كانت الولايات المتحدة قد اعتمدته في الإفادة من جيشها بالذات خلال برنامج **الصفقة الجديدة** (النيوديل)، مستحدثة أموراً مثل **فرق الصيانة المدنية**. كتب مذكرة نَظَّرَ فيها قائلاً إن الجيش العراقي المتوفر على وحدات الدبابات والمدفعية كان متوفراً أيضاً على وحدات للهندسة والصيانة – ذلك يعني أنه متوفر على مدارس عسكرية – مدرسة للهندسة، مدرسة للنقل وربما مدرسة للطب أيضاً.

وكتب يقول إن ما كان سيتعين فعله هو إخضاع وحدات المشاة العراقية لمدا ـر متخصصة في مختلف مهمات أعمال إعادة البناء المحددة - مدرسة إزالة الألغام أو مدرسة تفكيك المتفجرات.

غير أن راد سرعان ما اكتشف أن أحداً لم يكن يعرف أمكنة المدارس العسكرية العراقية، مما كان يعني ما هو قريب من استحالة وضع أي خطة عملية. بالتعاون مع عقيد في استخبارات الجيش وضع قائمة طلبات للحصول على مزيد من المعلومات من جهاز استخبارات الدفاع ووكالة الاستخبارات المركزية، ولكن الرد الذي أتى لم يَعْدُ كونه ببساطة: "لا علم لنا بالمطلق".

بدأ الناس يتدفقون من الوزارات والإدارات الاتحادية المختلفة على مكاتب غارنر في الحلقة ب من مبنى البنتاغون. كان المشهد شبيهاً بأحد مشاهد التعبئة والازدحام في أفلام الحرب العالمية الثانية القديمة حيث الجميع شديدو الاندفاع، الترتيب والإحاطة بالمهمات. غير أن غارنر استطاع أن يرى أن الأمر كان فوضوياً. قليلون كانوا يعرفون طبيعة المهمات المحددة لكل منهم. وعلى الرغم من أن الجميع كانوا يتحركون فإن أحداً لم يكن يعرف الجهة التي كان يتحرك نحوها.

مستخدماً تعبيراً عسكرياً للدلالة على أسلوب أي قائد ميداني في رسم خطة عسكرية على الأرض باستخدام الحجارة الممثلة للوحدات المختلفة، قال غارنر: "ما سنفعله هو تنفيذ بيان عملي بالأحجار".

في العطلة الأسبوعية التي صادفت يومي 21 و22 شباط/فبراير قام غارنر بجمع 200 شخص في جامعة الدفاع القومي بفورت ماك نير في جنوب غرب واشنطن العاصمة، في نوع من المؤتمر للمراجعة والتخطيط المكثفين.

خلال يومي العطلة ثمة سؤالان بقيا دون جواب في سائر المحاضرات، عروض سلايدات المواقع والمناقشات: ما الجهة التي كانت ستتولى المسؤولية عن العراق في اليوم الذي يلي يوم انتهاء القتال؟ هل كان ثمة أي عملية سياسية عراقية قادرة على مد يد المساعدة في موضوع تجنيد الناس المؤهلين لتوفير الأساسيات - الأمن، الماء، الكهرباء - وهي أمور تقع عادةً على عاتق رئيس البلدية في أي مدينة أمريكية؟

بُعيد مناورات الحجارة كان أحد المشاركين الذين تحدثوا مع غارنر وغيره من كبار الأركان قد حلل المؤتمر في تقرير مؤلف من 20 صفحة. أتى التحليل على ذكر العديد

من المشكلات ذات العلاقة بالتخطيط قبل شهر واحد من الحرب. ثمة، استعادياً، سلسلة من التحذيرات الصارخة والمتزامنة:

- "حُزَمُ القوة الراهنة غير مناسبة للخطوة الأولى من الأمن لسائر المناطق الحضرية الرئيسة، بله توفير الشرطة الانتقالية... نخاطر بدفع جزء كبير من البلد إلى هاوية اللااستقرار المدني والفوضى التي من شأن ضخامتها أن تلحق الهزيمة باستراتيجيتنا القائمة على إيجاد عراق مستقر جديد، وعلى نحوٍ أكثر مباشرةً نغامر بتعريض قواتنا الخاصة المشغولة كلياً بالقتال لقدرٍ أكبر من الخطر".
- "يبدو أن من المحتمل أننا سنبدأ تحركنا العسكري قبل أن نتأكد مما إذا كانت الأموال الكافية لتغطية تكاليف المرحلة الرابعة متوفرة. إذا كانت الأرصدة المتوفرة أقل من المطلوب، فإننا نخاطر بأن نترك وراءنا قدراً كبيراً من عدم الاستقرار المؤهل لأن يتحول إلى ملاذ آمن للإرهابيين".
- "في ميدان بُعد آخر، تشي الأفكار، كما قُدمت بإيجاز، بإحكام قبضة امبريالية مشددة. ثمة خطر حقيقي، لابد من الحذر".
- "لم يُقدِم المؤتمر على تناول القضية الأكثر أساسية: أي نوع من الحكم المستقبلي للعراق نفكر به، وما خطتنا للوصول إليه؟"
- في غياب خطة كافية لتوفير الأمن من قِبَل القوات الأمريكية أو حكومة مدنية للعراق، "ما الذي يحصل للقانون والنظام؟"

تابعت المذكرة كلامها لتبين أن غارنر نفسه كان قد اقترح اختبار فكرة ما أطلق عليه اسم "موانع معرقلة – مشكلات من شأنها، إذا لم تُحل، أن تعرّض المهمة للخطر".

مذكرة "الخطر الحقيقي، لابد من الحذر" هذه سلطت الأضواء على عدد غير قليل من مثل هذه المشكلات والعوائق.

ثمة "الأمن الذي هو التحدي الأكبر والمنزلق الأخطر. إذا لم نتمكن من ضبط الأمن، فإننا قد ننجح في تغيير النظام، إلا أن الاستراتيجية القومية قد تتعرض للانهيار وتصبح قواتنا على الأرض في براثن الخطر".

"هذه الندرة الكاملة للقوات المطلوبة، مضافةً إلى الضرورات الأمنية التي سنواجهها على الأرض دون شك، تقدم صورة باعثة على قدرٍ كبير من القلق حقاً. مما

يدعو إلى التفاؤل أن الجنرال غارنر لا يقل عن الآخرين إدراكاً لمدى خطورة وإلحاح هذه القضية. فقد أعلن صراحة أن المسألة حاسمة ونحن لسنا متوفرين على ما يكفي من القوات، مضيفاً أننا سنبحث الموضوع مع السكدف (SECDEF)، الان اس ايه (NSA) والدكتورة رايس.... لابد للأمر من "ن يساعد، خصوصاً إذا ما بادرت الدكتورة إلى نقل القضيتين الأهم – الأمن والكفة – إلى البوتوس (POTUS)،" أي إلى رئيس جمهورية الولايات المتحدة (President of the United States).

خرج غارنر وفريقه من مناورة الحجارة مثقلين بالقلق والارتباك. كتب نائبه في قيادة فريق التخطيط لما بعد الحرب، وهو جنرال ثلاث نجوم متقاعد آخر يدعى رون آدمز في دفتر مذكراته ما يلي: "افتراضات خاطئة. مفرطة في التفاؤل. بعيدة عن الواقع". ولاحقاً قال آدمز متذكراً: "شخصياً خرجت من مناورة الحجارة أشد قلقاً بكثير مما كنت قبلها. إلا أنني كنت متوجساً من البداية".

خلال ساعات الصباح الأولى لمناورة الحجارة، كان غارنر قد لاحظ شخصاً وحداً دأب على انتقاد كل شيء. "يا له من عقدة حقيقية!" قال غارنر بينه وبين نفسه؛ شخص ظل يقفز من مقعده ليقول شيئاً ما عن كل موضوع. خلال الاستراحة اقترب منه غارنر قائلاً: "هل لي أن أتحدث معك؟"

قال الرجل، وهو موظف في وزارة الخارجية في الـ 48 من العمر: "أنا توم واريك"

"ما الذي يجعلك على هذه الدرجة من سعة الاطلاع؟"

"دائب أنا على دراسة جملة هذه الموضوعات منذ ما لا يقل عن عام ونصف". قال واريك.

حقاً؟ لصالح من فعلت ذلك؟

لصالح وزارة الخارجية، قال واريك، وأضاف أنه كان قد كتب تقريراً مطولاً حول عراق ما بعد الحرب. "يحمل التقرير عنوان "دراسة مستقبل العراق"".

"لماذا أنت لست هنا، متفرغاً للعمل معي؟"

"يطيب لي أن أعمل معك". قال واريك.

"تم انتدابك" قال غارنر "تعال إلى هنا صباح الإثنين مصطحباً كل ما لديك من مواد".

يوم الإثنين الذي أعقب مناورة الحجارة، جاء واريك إلى البنتاغون. عند الظهر، لاحظ غارنر أن نصف العاملين مع واريك كانوا مبهورين به. شعر غارنر بالبهجة. كان الفريق بحاجة إلى شخص مثله، شخص يتحدى الجميع، يبقيهم مشرئبي الأعناق ومشغولين. "لم يكف عن الركض من هنا إلى هناك ممطراً الجميع بوابل من قصاصات الورق". قال غارنر لاحقاً، متذكراً. قرأ غارنر جزءاً كبيراً من دراسة "مستقبل العراق"، لم يوافق على كل ما فيها، إلا أنه شعر بأنها كانت منطوية على قدرٍ من الاستفزاز يكفي لجعلها مفيدة.

بعد بضعة أيام استُدعي غارنر إلى مكتب رمسفلد لحضور لقاء كبير مع كل من وولفوفيتز، الجنرال ميرز ونائب رئيس هيئة الأركان المشتركة جنرال المارينز بيت بيس.

عند أحد المنعطفات مال رمسفلد على غارنر قائلاً: "اسمع يا جي، ماذا لو بقيت بعد انتهاء اللقاء؟ أرجو أن تفعل. عندي زوجين من الموضوعات أريد استعراضهما معك".

بعد خروج الجميع، مشى وزير الدفاع إلى مكتبه وراح يقلب أوراقه. استغرق البحث بعض الوقت وبدأ رمسفلد يشعر بالغضب، عاجزاً عن الاهتداء إلى ما كان يبحث عنه. أخيراً التقط قصاصة ورق صغيرة. قال وهو يرفع نظره ويحدق في جي:

"قل لي يا جي. هل يوجد في فريقك شخصان يحملان اسمي واريك وأوسليفان؟"

"صحيح" رد غارنر "عندي زبون هو توم واريك الذي أنجز دراسة "مستقبل العراق" وعندي زبونة هي ميغان أوسليفان السيدة الشابة الموهوبة حقاً".

كانت أوسليفان، وهي أيضاً من وزارة الخارجية، قد التحقت بفريق غارنر مؤخراً. هي في الـ 33 من العمر، لامعة دون جدال، حائزة على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة أكسفورد، وقد سبق لها أن كتبت كثيراً عن الدول المارقة وعن العراق.

قال رمسفلد: "يتعين علي أن أطلب منك إبعادهما، كليهما، عن الفريق".

"لا أستطيع أن أفعل ذلك. كلاهما أثمن من أن يكون الاستغناء عنهما ممكناً".

حدّق رمسفلد في جي للحظة، ثم قال: "انظر يا جي. جاءني الطلب من جهة عليا يتعذر علي مخالفتها. لذا فانا مضطر لأن أطلب منك إبعادهما عن فريقك".

"لا مجال للمساومة في الأمر؟" سأل غارنر.

"أنا آسف. ليس ثمة مجال" رد رمسفلد.

راح غارنر يفكر: درجة عليا يتعذر على وزير الدفاع مخالفتها. لا يمكن أن تكون إلا بوش أو ربما تشيني.

عائدا إلى المكتب، لم يستطع غارنر مفاتحة واريك أو أوسليفان. أبلغ عقيداً كان يعمل ضابطاً لعملياته يدعى توم بالتازار بما حصل. علق العقيد: "هذا جنون خالص!"

قال له غارنر: "ابحث عنهما. وما إن تعثر عليهما قل لهما أن يعودا إلى الجهة التي جاءا منها، سأقوم باستعادتهما. قل لهما إن لإجراء مؤقت".

لاحقاً قام غارنر بتعقب نائب مستشارة الأمن القومي ستيف هادلي. وما إن أمسك به حتى قال له: "إنني شديد الإصرار على استعادة هذين العنصرين".

"نعم. ولكنني لست واثقاً من قدرتنا على مساعدتك في هذا الأمر". رد هادلي.

بقي غارنر مصراً على طلبه. فواريك وأوسليفان يعرفان ما يتحدثان عنه. لم يكن ثمة كثير من الوقت قبل احتمال مباشرة الانتشار في الشرق الأوسط، وكان غارنر بحاجة ماسة إليهما.

قال هادلي: "إن الرجل بالغ الصعوبة". من شأن استعادة واريك إلى الفريق أن يكون مستحيلاً، أما بالنسبة إلى أوسليفان فقد بدا تاركاً الباب مفتوحاً.

في تلك الليلة اتصل بالتازار بغارنر في شقته ليقول له إن واريك وأوسليفان قد ذهبا.

سأله غارنر: "ما مصدر هذا الإجراء بتقديرك يا توم؟"

"لا أعرف، غير أن لي صديقاً يعمل في البيت الأبيض. سأتصل به الليلة عبر هاتفه المنزلي. لا أريد التحدث معه عبر الخط الرسمي".

اتصل بالتازار بصديقه العقيد بي جي دَرْمَر العامل لدى ليبي الدرّاج (سكوتر)، نائب رئيس جهاز العاملين لدى الرئيس، وهو متوفر على خط آمن في البيت. لعل للموضوع، حسب إفادة دَرْمَر، علاقة بأحمد الجلبي، ذلك العراقي المنفي ورئيس المؤتمر الوطني العراقي، وهي جماعة تتخذ من لندن مقراً لها وتمولها الولايات المتحدة. كان مكتب تشيني دائم الإصرار على جعل الأمور كلها تمر عبر الجلبي في حين أن واريك لم يكن من المغرمين بالجلبي. قام درمر بوصف الاعتراض على واريك على أنه صادر عن

"جماعة مؤلفة من نحو خمسة أشخاص" في مكتب تشيني – جماعة أطلق عليها اسم "عصابة سرية".

صباح اليوم التالي نقل بالتازار المعلومات إلى غارنر، وقال: "إنه نائب الرئيس. فنائب الرئيس لا يستطيع أن يطيق أياً منها".

سبق لواريك أن كان في إدارة كلنتون، وقد كان مؤيداً قوياً لإدانة صدام حسين بوصفه مجرم حرب. سبق له أن عمل في قضايا تغيير الأنظمة لدى الخارجية، أن قابل عدداً كبيراً من المنفيين العراقيين، وأن اكتشف أن منفيين آخرين لم يكونوا مولعين بالحلبي. ثمة كان، في الحقيقة، مؤتمر لقادة المعارضة العراقية كان قد عمل على إعداده في 2002 حين قال عدد كبير من هؤلاء القادة إنهم لم يكونوا مستعدين للحضور إذا ما تم تكليف المؤتمر الوطني العراقي بإدارة المؤتمر.

أما أوسليفان فكانتْ قد عملتْ في معهد بروكنغز، مركز أبحاث يسار وسط، وعُدَّتْ إحدى صنائع ريتشارد إن هاس، مدير مكتب التخطيط السياسي في وزارة باول الخارجية. كانت قد تعاونت مع هاس في تأليف بحث يحض على توظيف سلسلة من الحوافز الاقتصادية، السياسية والثقافية عوامل تأثير إيجابي في بلدان معينة مثل العراق بدلاً من القوة العسكرية أو التحرك السري. وفي بحث آخر كانت أوسليفان قد طرحت أسئلة حول جدوى دعم عراقيي المنافي.

رأى غارنر أن المناورة كلها كانت نذير شؤم. ساءه أن تكون الشخصيات والإيديولوجيات خصوصاً مرشحة لأن تضطلع بدور معين في مثل هذا التخطيط الجدي لما بعد الحرب. شكل فقدان واريك، وهو خبير متميز في مثل هذه القضايا، ضربة موجعة رغم احتفاظ فريق غارنر بدراسته التي تحمل عنوان "مستقبل العراق"، مع التحاق عدد كبير من العراقيين الذين كانوا قد عملوا في المشروع بالعمل في منظمة غارنر. قام الحادث بتسليط الضوء على مدى عمق الصراع الداخلي بين وزارتي الدفاع والخارجية.

في وزارة الخارجية، سمع باول بما كان رمسفلد قد فعله. سأله عبر الهاتف: "ما الذي يجري بحق الجحيم؟"

رد رمسفلد قائلاً إن الوزارة كانت بحاجة إلى أشخاص ملتزمين مئة بالمئة، أناس لم يسبق لهم أن كتبوا أشياء لم تكن مؤيدة.

فهم باول مما قيل أن عناصر وزارة الخارجية لم يكونوا مؤيدين لمنفيين من نمط الجلبي. ما لبث وزير الدفاع والخارجية أن اشتبكا في شجار كبير. راح باول يقول: "أنا أيضاً أستطيع أن أسجن".

عاد غارنر إلى رمسفلد وقال له: "اسمح لي أن أستعيد هذين الشخصين!"

"لا أستطيع" قال رمسفلد، "قلت لك إن جهة عليا طلبت إبعاد هذين العنصرين. وأنا طلبت منك ذلك. وقد فعلت. لا أستطيع أن أتراجع الآن". أخيراً قال رمسفلد: "انظر، استعد المرأة". كان غارنر قادراً على استعادة أوسليفان. "لن يعرف أحد بذلك".

ما لبث باول أن عرف بالحل الوسط، وتساءل عما إذا كان من شأن الأمور أن تبدو أكثر غرابة. اهتدى إلى سبعة من كبار موظفي الخارجية ممن رأى أنهم قد يكونون مفيدين لغارنر، إلا أن دوغ فايث أراد تجنيد غرباء بدلاً من ممثلين آتين من "وزارة اللطف". كان ذلك هراء بنظر باول. نشب بينه وبين رمسفلد شجار كبير آخر، غير أن باول نجح في إدخال خمسة من السبعة في فريق غارنر بعد أسبوع من السحف الإضافي.

برأي بول هيوز، وهو عقيد من الجيش في جهاز أركان غارنر، تمثلت المشكلة الطاغية بعدم وجود خطة واحدة موحدة. لم يكن ثمة وثيقة واحدة تقول بصراحة: **هذا هو الهدف. هذا هو المسؤول. هذه هي المهمات الأولى. هذه هي الخطوات التنسيقية التي سنتخذها للسير قدماً**. كان غارنر قد حاول تحقيق نوع من التزامن بين الأمور في مناورة الحجارة، غير أن ذلك لم يحصل، بل ولم يتم قطع أي خطوات ذات شأن في ذلك الاتجاه.

كان هيوز، وهو ضابط طويل القامة، رشيق، في الخمسين من العمر أمضى 28 سنة في الخدمة الميدانية الفعالة، مسؤولاً عن دراسات الأمن القومي في جامعة الدفاع الوطني إلى أن جرى انتدابه للعمل في فريق غارنر. كان هيوز هذا ومعه ضابط آخر من أركان غارنر هو العقيد توماس غروس، معروفين باسم "مؤسسة القانون،" ومتمتعين بقدرٍ كبير من حرية الحركة والتصرف. حتى في بعض قوائم أرقام الهواتف الرسمية حيث كان زملاؤهما منسوبين إلى الأقسام التي يعملون فيها، كان هيوز وغروس يرد ان تحت اسم "مؤسسة القانون" ببساطة.

كان هيوز قد أمضى ستة أشهر عاكفاً على التفكير بما سيكونه عراق ما بعد الحرب، وكان قد نظم ندوة دامت يومين حول القضية في تشرين الثاني/نوفمبر 2002. كانت جامعة الدفاع الوطني قد أعدت تقريراً مؤلفاً من 41 صفحة عن استنتاجات المشاركين في الندوة، تقريراً ما لبث أن وقع بيد مساعد خاص لوولفوفيتز يدعى جيم توماس.

واصل هيوز مطالبته بخطة شاملة. كان الرد من مكتب فايث هو "لا" بسيطة. كان هيز يرى أن وثيقة كهذه كان من شأنها بالضرورة أن تنطوي على العملية البينية المحيطة بسائر الإدارات بما فيها الخارجية والاستخبارات المركزية. لم يكن من شأن ذلك أن يتحقق لأن أمر الان اس بي دي – 24 (NSPD-24)، الذي قضى بتأسيس مكتب غارنر، كان قد حصر المرجعية والمسؤولية فيما يخص التخطيط لعراق ما بعد الحرب بوزارة الدفاع.

بادر رمسفلد بدعوة فريق خارجي من الخبراء إلى البنتاغون لمناقشة عراق ما بعد الحرب. كان بين أعضاء الفريق جيمس اف دوبنز، الذي كان خبيراً في إدارة أوضاع ما بعد النزاعات الحديثة. بات الدبلوماسي المخضرم اللبق البالغ الـ 60 من العمر دوبنز يعرف باسم: مستر بعد الحرب. كان مبعوثاً للولايات المتحدة في كوسوفو، البوسنة، هايتي والصومال، متولياً عملية الإشراف على مهمات إشاعة الاستقرار وإعادة البناء الحديدة والملتبسة على حدٍّ سواء في تسعينيات القرن العشرين. والآن كان في مؤسسة راند (RAND) البحثية رئيساً لقسم التخطيط الدولي والأمني.

في 2001، كان باول قد عيّن دوبنز رئيساً للمفاوضات فيما بين جماعات المعارضة الأفغانية التماساً لاختيار زعيم بعد سقوط الطالبان. كانت تلك مهمة وساطة كلاسيكية، لم تكن حاجتها إلى التوافق بين إدارات الولايات المتحدة ووزاراتها المختلفة أقل من حاجتها إلى التفاوض مع حكومات أجنبية. في وكالة الاستخبارات المركزية، قام عدد من المسؤولين باقتراح حميد قره ضاي، وهو زعيم أفغاني معتدل كان وزيراً ثانوياً في عهد الطالبان ولكنه كان قد هجر الحركة والتحق بالمعارضة. وافق الجنرال فرانكس فحذا آخرون في وكالة الاستخبارات المركزية، ووزارتي الدفاع والخارجية حَذْوه. بعد حصوله على الإجماع داخل الأجهزة البيروقراطية الأمريكية، توجه دوبنز إلى مؤتمر دولي في العاصمة الألمانية بون حيث جرى إقحام الطوائف والتكتلات الأفغانية في سلسلة اجتماعات تفاوض دامت الليل كله سعياً إلى التوافق على زعيم. تمكن دوبنز من

إقناع اللاعبين الإقليميين الأساسيين – الروس، الباكستانيين بل وحتى الإيرانيين – بالاتفاق على قره ضاي الذي ما لبث أن أقسم يمين الولاء رئيساً لجمهورية أفغانستان في 22 كانون الأول/ديسمبر 2001، – ولما ينقض سوى مئة ويومين على 9/11.

في البنتاغون، قدَّم أحد نواب فايث تقريراً موجزاً إلى دوبنز وعدد من الخبراء الخارجيين الآخرين حول خطة ما بعد حرب بدت منطوية على تصور نوع من الاحتلال الشامل للعراق. عدها دوبنز خطة آ – نوعاً من أنواع تنصيف الجنرال دوغلاس ماك آرثر نائباً للملك. كانت الولايات المتحدة ستهيئ البلد لعقد انتخابات من شأنها أن تمكن العراقيين من استعادة السيادة.

بعد الإيجاز جاء رمسفلد لمقابلة دوبنز والآخرين.

مقراً بدوبنز وبدوره قال رمسفلد: "أرى أننا نجحنا في أفغانستان، وآمل أن نحقق النجاح نفسه في العراق – بمعنى جمع فريق ممثل للعراقيين وصولاً إلى إيجاد حميد قرة ضاي العراق".

فيما بعد قال رمسفلد: "كنت ميالاً إلى الحل الثاني، والرئيس أيضاً.... من الواضح أن الحاجة كانت تدعو إلى شخص يمكن للناس أن يعتبروه موفراً لنوع من القيادة للبلاد. وبقيت على الدوام أشعر بأن أي قوات أجنبية ليست إلا أمراً خير طبيعي في أي بلد، وتغدو مع الزمن ظاهرة شاذة وغير مرحب بها في الحقيقة. ثمة أيضاً مفهوم الموافقة المتضائلة".

بدا دوبنز سعيداً إذ رأى أن هناك خطة ب – نظير مؤتمر بون مع نقل سريع للسلطة إلى حكومة عراقية. راح يتساءل أي الأنموذجين سيتم اعتماده: أنموذج ماك آرثر أم أنموذج قرة ضاي؟ بدا أنه لم يكن ثمة أي خطة مدروسة جيداً لأي من الأنموذجين، كما لم يكن هناك أي إجماع داخل الإدارة. كان واضحاً أيضاً أن الإدارة كانت بعيدة عن إدراك مدى ضخامة المهمة المنتصبة أمامها – لا الأمن، الحكم والقضايا الاقتصادية وحسب بل مهمة السعي لبلسمة بعض الجروح السابقة الموروثة عن الدكتاتورية، ومعالجة مشكلة الأحقاد المتراكمة فيما بين السنة الذين كانوا يحكمون العراق في ظل صدام والشيعة الذين يشكلون أكثرية سكانية.

كان بوش قد عبر عن ازدرائه لعملية بناء الدول في حملته الرئاسية عام 2000. أما الآن فإن إدارته كانت موشكة على الانخراط في تلك العملية.

بعد ستة أسابيع من تعيينه، ذهب غارنر إلى البيت الأبيض، ضُحى يوم الجمعة الواقع في 28 شباط/فبراير 2003، للاجتماع مع الرئيس بوش للمرة الأولى وإطّلاعه بإيجاز على ما كان فريقه عاكفاً على القيام به. وفيما كان ينتظر خارج غرفة العمليات، حيث كان الرئيس والمجلس الحربي في اجتماع، تعرف غارنر على المدعي العام جون آشكروفت.

يبدو أننا كلينا خارج الأنشوطة، الحلقة الضيقة، قال غارنر محاولاً كسر الجليد.

كان رد آشكروفت متمثلاً بما رآه غارنر نظرة حملت معنى "اذهب إلى الجحيم!".

في غرفة العمليات جلس غارنر في الزاوية البعيدة خلف طاولة صغيرة جيدة الصقل. كان الرئيس في الزاوية المقابلة وبجانبه كبار المسؤولين بمن فيهم باول، رمسفلد، رايس وتنت. الجنرال فرانكس كان هناك، أما تشيني فكان على شاشة الاتصال التلفزيوني الآمن. كان فرانك ملر، مدير أركان مجلس الأمن القومي لشؤون الدفاع في منتصف إيجازه. كان غارنر متوتراً. كان يستطيع أن يرى أن الرئيس لم تكن لديه أي فكرة عنه أو عن هويته اللعينة.

واصل ملر كلامه، وزغ بوش انتباهه بين ملر وغارنر، مُحدِّقاً بتركيز في ملر لبعض الوقت، ثم ملقياً نظرة خاطفة على غارنر، قبل معاودة التحديق في ملر. وبعد ذلك نظرة سريعة أخرى إلى غارنر قبل العودة من جديد إلى ملر. ومن ثم نظرة ثالثة.

قال غارنر لنفسه: **سيكون هذا يوماً طويلاً**. فجأة، وكأن شيئاً نزل من السماء، أطلق بوش تحية ود بإشارة من يده المرفوعة مبرزاً الإبهام عالياً. أحس غارنر بتحسن لأنه اعتقد أن الرئيس شعر بانزعاجه فراح يحاول طمأنته وخَطْب وده.

"حسناً، وماذا بعد؟" سأل الرئيس عندما انتهى كلام ملر.

ردت رايس: "الجنرال غارنر في فريق التخطيط لما بعد الحرب سيقدم لكم إيجازاً عن ذلك".

"قبل ذلك" قال الرئيس "حدثينا أنت عن نفسك".

"بل، سأحدثك عنه" قال رمسفلد مقاطعاً، ولخص سجل خدمة غارنر في الجيش، نجحه في عملية توفير الراحة، وعمله في لجنة رمسفلد الفضائية.

"رائع" قال بوش. ثم التفت إلى غارنر قائلاً: "هيا إذن!"

قام غارنر بتوزيع نسخ عن مداخلته، مداخلة مؤلفة من إحدى عشرة نقطة ثم غاص في موضوعه مباشرة. مقارباً مهماته الأساسية التسع في خطة الان اس بي دي - 24 (NSPD-24)، قال غارنر إن أربعاً منها يجب أساساً ألا تكون له هو لأنها كانت ببساطة، أكبر من طاقات فريقه الصغير. اشتملت المهمات الأربع على تفكيك أسلحة الدمار الشامل، إلحاق الهزيمة بالإرهابيين، إعادة تشكيل الجيش العراقي وإعادة تشكيل أجهزة الأمن الداخلي العراقية الأخرى. بعبارة أخرى، أربع مهمات باغة الصعوبة حقاً. أفاد غارنر بأن تلك المهمات يجب أن يتولاها الجيش.

أومأ الرئيس برأسه موافقاً. لم يتدخل أحد غيره، رغم أن غارنر كان للتو قد قال لهم إنه لن يستطيع أن يكون مسؤولاً عن مهمات حاسمة لما بعد الحرب - تلك المهمات ذات العلاقة الأقوى بالأسباب المعلنة للذهاب إلى الحرب في المقام الأول - لأن فريقه لم يكن قادراً على الاضطلاع بها.

لم يبادر أحد إلى طرح الأسئلة الطبيعية اللاحقة المتمثلة بـ: مَنْ كان سيتولى هذه المسؤولية، إذا لم يفعل غارنر؟ هل كانت القضايا ستُترك سائبة؟ هل كانت ذات أهمية؟ ربما كان غارنر مخطئاً. قد يكون قادراً على، أو ملزماً بالاضطلاع بالمسؤولية عن تلك المهمات. بدت أهمية ما كان قد قاله محلقاً فوق رؤوس الجميع.

ثم انتقل غارنر إلى الحديث عن اعتزامه تقسيم البلاد على فرق إقليمية، حيث وصل إلى الكلام عن الخطط المشتركة بين الإدارات والوزارات.

قاطعه الرئيس: "لحظة! من أين أتت؟"

"من فلوريدا سيادة الرئيس"

"لماذا تتحدث بتلك اللهجة إذن؟" سأل الرئيس محاولاً بوضوح تحديد مكان لهجة غارنر.

"لأنني ولدت وترعرعت في مزرعة كبيرة بفلوريدا. كان أبي صاحب مزرعة كبيرة".

"عظيم" قال كبير أصحاب المزارع مبدياً استحسانه. أخوه جيب كان حاكماً للولاية، وكان الرئيس يزورها بانتظام.

تابع غارنر كلامه موضحاً أن على كل وزارة وإدارة أن تضفي "الصفة العملياتية" على خطتها وأن تمتلك "رؤية" للحالة الهدف، ولاسيما فيما يخص فترة الـ 30 يوماً التي سنة واحدة الأولى.

طرح فكرته عن الإعاقات الاستعراضية، تلك المشكلات التي كان من شأنه أن تعرّض المهمة في مساراتها للخطر بل وأن تؤدي، ربما، إلى تعطيلها. ثمة صراع على المال.

كان الرئيس يصغي.

مشيراً إلى مناورة الحجارة، قام غارنر بتسليط الضوء على خططه الرامية إلى صيانة الاستقرار في العراق بعد المعارك القتالية.

عرّج مسار كلام غارنر على موضوع: "استخدام الجيش النظامي العراقي فيما بعد الحرب". قال غارنر: "إننا سنستخدم الجيش. يجب علينا أن نستخدمه. إنه متوفر على المهارات المطلوبة".

سأل أحدهم عن العدد المطلوب استخدامه من الجيش العراقي.

رد غارنر: "سأقترح عدداً كبيراً. سيتراوح العدد بين 200.000 و300.000".

تلفت غارنر حوله في الغرفة. جميع الرؤوس كانت تميل من الشمال إلى الجنوب. لم يعترض أحد. لم يطرح أحد أي أسئلة حول خطته.

ثم أضاف غارنر أنه كان يريد تدويل جهد ما بعد الحرب. على الفور، لاحظ شيئاً من الانزعاج في الغرفة. كان الانزعاج بادياً على الجميع باستثناء باول. رأى غارنر أن صراعاً عنيفاً كان دائراً، وقدّر أن كثيرين كانوا يقولون بينهم وبين أنفسهم: **ألا تفهم؟ لن نسمح بتدويل هذه المسألة. إنها عملية تخص الولايات المتحدة.**

تابع غارنر حديثه قائلاً إنه كان سيرسل فريقه الطليعي إلى المنطقة في غضون عشرة أيام، ثم يتبعه الباقون بعد عشرة أيام أخرى. لم يقل الرئيس شيئاً، أي شيء. لم يلمّح أحد إلى التاريخ المحتمل لاندلاع الحرب، إلا أنها بدت وشيكة بوضوح.

"شكراً جزيلاً" قال الرئيس لدى انتهاء غارنر من محاضرته. بدأتْ رايس تتحدث عن أمر آخر، فاستنتج غارنر أن دوره قد انتهى وعليه أن ينصرف. وفيما كان غارنر يهم بالخروج، تقاطعت نظرات الرئيس بنظراته.

"ركلة على المؤخرة يا جي" قال بوش.

فيما كان غارنر ينتظر رمسفلد خارج الغرفة، خرج بوش ورايس وتجاوزا غارنر بثلاث أو أربع خطوات. فجأة دار بوش إلى الخلف وقال:

"اسمع يا أنت، إذا واجهتك مشكلة ما مع حاكم الولاية في فلوريدا، يكفي أن تتصل بي لحلها".

obeikandl.com

14

بعد أن كان باول قد خفَّفَ من لهجة فكرة الارتباط بين صدّام والقاعدة في خطابه بالأمم المتحدة يوم 5 شباط/فبراير، أراد تشيني أن يدلي بدلوه متهماً. استاء تنت. كان ذلك هراء، كلاماً فارغاً. همس في أذن مساعده جون برينان متسائلاً عما إذا كان يتعين عليه أن يستقيل. في الوقت نفسه، لم يكن تنت يريد أن يكون مدير الاستخبارات عديم الوفاء المنسحب من أزمة قومية أو عشية الحرب.

ذهب إلى رئيس الجمهورية. لم تكن المعلومات الاستخباراتية المتوافرة لدى وكالة الاستخبارات المركزية مؤيدة للاستنتاج الذي يتوصل إليه خطاب تشيني المقترح، قال تنت. ليس ثمة أي برهان على أن صدّاماً متوفر على أي شكل من أشكال "السلطة، التوجيه والرقابة" بالنسبة إلى المساعدة التي تحصل عليها منظمة القاعدة من العراق. أبلغ تنت الرئيس بأن وكالة الاستخبارات المركزية لا تستطيع، إذا ألقى تشيني خطابه، أن تؤيد ما يرد في الخطاب، ولن تفعل.

وقف بوش في صف تنت. وطلب من تشيني أن يحجم عن إلقاء الخطاب.

دون إبلاغ أحد في البيت الأبيض أو البنتاغون، ذهب غارنر إلى مقر الأمم المتحدة في مدينة نيويورك يوم 3 آذار/مارس. كان ونائبه رون آدمز يشعران بقوة أنه كلما كانت الحرب جهداً تحالفياً كلما كان أفضل بالنسبة إلى الجميع. قرر غارنر أن يستكشف مدى قدرته شخصياً على طبع أكبر قدر ممكن من جهد ما بعد الحرب بطابع الأمم المتحدة.

كان التجاوز خطراً لأن البيت الأبيض والبنتاغون لم يكونا يهتمان بالأمم المتحدة إلا قليلاً. وتعليق غارنر على "تدويل" الجهد لم يلق استحساناً في اجتماع مجلس الأمن القومي قبل أيام قليلة.

تولت نائبة أمين عام الأمم المتحدة لويز فريشيت، رئاسة الاجتماع.

قالت فريشيت: "إن الأمم المتحدة تبذل جهوداً كبيرة لتأمين الغوث المباشر في الشؤون الإنسانية ولا تسعى إلى الاضطلاع بأي دور إضافةً إلى ذلك".

سأل غارنر عما إذا كان يستطيع الحصول ولو على ضابط ارتباط مع الأمم المتحدة.

ردت فريشيت بالنفي.

"يا لها من ضربة!" قال غارنر لنفسه. خيبة. ذلك هو حجم مساعدة الأمم المتحدة

بعد ذلك التقى غارنر جيرمي غرينستوك، السفير البريطاني لدى الأمم المتحدة الذي بدا مرهقاً، مستهلكاً تماماً جسدياً. كان التوتر الناتج عن السعي لاستصدار قرار ثانٍ حول التفتيش عن "أسلحة الدمار الشامل في العراق" – ذلك المسعى الذي كان سيخفق بعد قليل – دائباً على أن يفعل فعله.

قال غرينستوك: "نحن معكم في هذا. نعم نحن معاً في الأمر، ولكن من شأن تدويل الجهد أن يجعل كل شيء أيسر بالنسبة إلينا جميعاً". كان يعني بالنسبة إلى رئيس الوزراء البريطاني بلير الذي كان قد وعد حزب العمال بالعمل على استصدار قرار أممي ثانٍ. تقليدياً درج حزب العمال على احترام الأمم المتحدة.

بعد ذلك، جاء السفير الأمريكي في الأمم المتحدة جون دي نيغروبونتي. تمنى لغارنر "كثيراً من الحظ" ورحل. رأى غارنر أن الرجل بدا أكثر اطمئناناً من غرينستوك بما لا يقاس. لم يكن نيغروبونتي ملزماً بإضاعة الكثير من الوقت على إبداء الاحترام للأمم المتحدة.

في اليوم التالي، يوم 4 آذار/مارس، قدم فايث إيجازاً سرياً أمام الرئيس ومجلس الأمن القومي منطوياً على بيان عن "أهداف الولايات المتحدة والتحالف" في الحرب على العراق. كان الإيجاز كلاماً وَرْدياً مفعماً بالتفاؤل، لغة علوم سياسية فيها كل شيء من تحقيق قدرٍ ملموس من التحسين في نوعية حياة العراقيين إلى الانطلاق نحو الديمقراطية والحصول على "المشاركة الدولية في عمليات إعادة البناء". ثمة كانت قائمة تمنيات وأحلام عريضة دون أي إشارة لأسلوب التحقيق.

لم يكن غارنر يعرف شيئاً عن اجتماع فايث مع الرئيس. بعد يوم واحد، في 5 آذار/مارس، أطلّع رايس على آخر المستجدات في مكتبها الكائن في الجناح الغربي. تلك الغرفة الفخمة ذات السقف العالي المزين باللون الأزرق والباب اللافت بسماكته. إنه المكتب المخصص لمستشار الأمن القومي منذ عقود.

كشف غارنر عن ذهابه إلى الأمم المتحدة يوم الاثنين، مطالبته بضابط ارتباط وعدم تكلل محاولته بالنجاح.

بقيت رايس جالسة بصمت.

تابع غارنر كلامه: "لا يسعون إلى أدوار إضافية. هم مستعدون للمساعدة ولكنهم يريدون أن يستوعبوا مفهومنا. ذلك هو ما يجعلهم يكررون: "لا نستوعب مفهومكم. لماذا أنتم مصرون على الانفراد؟"

واصلت رايس جلستها الصامتة.

مواصلاً طرح بنود برنامجه المكتوب قال غارنر إنه بحاجة إلى "تمويل تمهيدي" لأمور أساسية مثل الغذاء، تعزيز القانون وتأمين الطاقة.

"حسناً" قالت رايس ملتفتة إلى هادلي وفرانك ملر. "لنركز على هذا. لنمكنه من الانطلاق. لننجز الأمر مع حلول وقت الحاجة إليه".

بدا هادلي وملر كما لو كانا يسجلان ملاحظات، غير أن غارنر تصور أن توجيهات رايس لم تكن سوى فقاعات فارغة متطايرة في الأثير. لم يشعر بوجود أي نظام متابعة فعلي.

نحن بحاجة إلى المال لدفع رواتب الموظفين في العراق، لتسديد مرتبات الشرطة والجيش، قال غارنر لرايس: "مازلت أخطط لتسديد رواتب جميع هؤلاء فور وصولي إلى هناك".

ثمة كان نحو 6.1 مليراً من الأرصدة العراقية المجمدة في الولايات المتحدة، كما كان غارنر قد علم. لو استطاعوا الحصول على ذلك المبلغ لباتوا قادرين على استعادة الموظفين المدنيين - ولاسيما الشرطة وجيش عراقي مؤلف من 200.000 جندي - وإبقائهم في الخدمة لمدة 90 يوماً تقريباً.

بدت رايس موافقة.

كانت "الوزارات" الفقرة الثانية في البرنامج. من هو الموظف الأمريكي الذي كان سيعين لإدارة وزارة الزراعة في العراق؟ أو وزارة الداخلية؟ كان لابد له من تحديد هويت كل هؤلاء الناس المرشحين لتحمل المسؤولية، قال غارنر، ولم يكن قد انتهى من ذلك بعد.

ثم انتقل غارنر إلى موضوع حساس: كان الجميع يعرفون أنهم لم يكونوا متوفرين على قوات كافية وبحاجة إلى المزيد من الأمن.

obeikandl.com

"أين نحن على هذا الصعيد، إذن؟" سألتْ رايس.

كلاهما كان يعرف أن جزءاً من الجواب تمثل بأن رمسفلد وفرانكس كانا لا يوالان عاكفين على وضع خطة الحرب النهائية. كان غارنر مؤمناً بأن خطة فرانكس الأحدث كانت تدعو إلى مستوى قوة أقل على نحوٍ مسرحي من 500.000 في خطة الحرب الأولية على العراق – ربما على مستوى منخفض يصل إلى 160.000 فقط. ولكن مع تدفق قوات إضافية يصل تعدادها إلى 100.000 بعد بدء المعارك، إضافةً إلى 200.000 – 300.000 من الجيش العراقي ممن يمكن جعلهم يعملون مع القوات الأمريكية، كان ممكناً توفير قدرٍ معين من الأمن والاستقرار.

وفيما يخص قضية العقود ذات العلاقة بالتنمية الاقتصادية وإعادة البناء، رأى غارنر أن من الممكن إلزام كل واحد من المتعاقدين الأجانب بتشغيل متعاقد فرعي عراقي أو أكثر – بما يفسح في المجال لإسالة بعض المال إلى العراقيين العاديين.

وماذا عن أعداد الشرطة وموظفي تطبيق القانون الآخرين؟ كان غارنر يريد مبالغ كبيرة، في حين اكتفى فرانك بـ 70 مليوناً سلفة جاهزة. كان غارنر يرى أن الأمر سيتطلب مئات الملايين غير أنه حض على الانتظار: "دعونا لا نقرر الآن رقماً أدنى أو أعلى، بل دعونا نترك الأمر مفتوحاً بما يمكنكم من المبادرة إلى مساعدتي بأقصى سرعة ممكنة إذا كنت على صواب. وإذا كان هو على صواب فلا نكون قد خسرنا شيئاً. غير أنني لا أعتقد أنه على صواب".

تمثل البند التالي بالتمويل. "من يمسك المال يمسك بزمام التحكم" قال غارنر. "أين هو المال؟ أنا بحاجة إلى المال".

بدت رايس مؤيدة، إلا أن غارنر بقي غير واثق تماماً بشأن التمويل. أدرك أنه كان يقال للرئيس، رايس وآخرين إن الحرب كان من شأنها أن تكون سهلة للغاية – بل ربما مجرد نزهة حسب تعبير أحد لتعليقات الصقرية التي نشرتها **الواشنطن بوست** قبل الحرب بقلم صديق تشيني ورمسفلد القديم كن آدلمان. قضية المال، مثل أكثرية المسائل الأخرى، تُركت معلقة.

كان "الحكم" البند الأخير كيف كان سيتم تشكيل حكومة لعراق ما بعد الحرب؟ سأل غارنر. إنها مسألة السلطة السياسية الطاغية. من كان سيتولاها؟ كان أحدهم سيفعل. ولكن من؟

لم ترد رايس بالمطلق.

يوم الجمعة، يوم 7 آذار/مارس، اجتمع غارنر ورون آدمز مع وولفوفيتز. عبرا عن استائهما، وتذمرا من أنهما لم يكونا يعرفان موعد سفرهما المتوقع إلى الكويت. لم يكن لديهما أي معلومات ذات شأن حول كيفية نقل العاملين إلى المنطقة، أو أين كانوا سيقيمون بانتظار اندلاع الحرب. لا أحد كان مستعداً لإخبارهما عن الموعد المرسوم لبدء الحرب.

قال وولفوفيتز، وهو ثاني مسؤول في البنتاغون يفترض فيه أن يكون متوفراً على فكرة جيدة عن موضوع التوقيت: "ينبغي أن تكونوا قد أصبحتم هناك".

المئات ممن اشتهر ماركس العنكبوت، بل تواقح بتسميتهم سلسلة قيادته "الفنية" بين صفوف ضباط الاستخبارات بمن فيهم كبير ضباط استخبارات فرانكس البريغادير جنرال جف كيمونز باتوا في الصحراء الكويتية. غير أن المعلومات الاستخباراتية المتوفرة لديهم عن أسلحة الدمار الشمل والصواريخ لم تكن قادرة على الإقناع.

قاذفاً عبارة "غير كاف" الموجزة، مرة بعد أخرى وعلى نحوٍ متكرر، في وجه كيمونز صرخ ماركس: "هذا غير كافي، غير كافي، غير كافي. لابد لك يا جف من تحقيق شيء من التقدم في الموضوع يا صاحبي. سوف أتصل بمكتب رمسفلد. لن أتصل بكامبون،" الذي أصبح الآن نائب وزير دفاع لشؤون الاستخبارات. "إنه لا يعفرني. ولكن هذا ليس صحيحاً".

كانت تلك صورة نابضة بالحياة للإفلاس. الجنرال المكلف بالعثور على أسلحة الدمار الشامل عند صدام واستكشافها كان قد عاين ثمار ما يزيد على عقد من العمل الاستخباراتي ووجدها ناقصة. بوش وآخرون في الإدارة كانوا دائبين على التصعيد الخطابي. فالناطق باسم البيت الأبيض آري فلايشر قال في 5 كانون الأول/ديسمبر 2002 : "ما كان رئيس الولايات المتحدة ووزير دفاعها ليؤكدوا بمثل هذه الصراحة والوضوح أن لدى العراق أسلحة دمار شامل، لو لم يكن الأمر صحيحاً، ولو لم يكونا مستندين إلى أساس صلب يمكّنهما من قول ما يقولانه". وأعلن فلايشر مرة أخرى يوم 9 كانون الثاني/يناير 2003 : "إننا واثقون من وجود الأسلحة". وفي خطابه الإذاعي الأسبوعي قال بوش يوم 8 كانون الثاني/يناير: "لدينا مصادر تخبرنا بأن صدام حسين أقدم مؤخراً على تفويض قادة العراق الميدانيين باستخدام أسلحة كيميائية – الأسلحة نفسها التي يزعم الدكتاتور أنه لا يملكها".

كان ماركس متفهماً لمأزق كيمونز. كان شبيهاً بمأزقه هو. لم يكونا سوى جنرالين صغيرين عاكفين على معاينة كوام المعلومات غير المجدية نفسها. كان كيمونز متصارعاً مع جحيمه الخاص. لم يكن مستعداً للذهاب إلى فرانكس خوفاً من استجرار أحد تفجرات الأخير الفضائحية والبذيئة: برأي ماركس. كان من شأن كيمونز أن ينتهي بثقب في صدره، دون أن يكون أقرب إلى أي حل، وهذا أهم.

غير أن الاستخبارات لم تكن تحقق أي قدر من التحسن. إذا لم يكن كامبون ورمسفلد يعرفان ماركس عن كثب، فإن من شأن ذلك أن يكون مشكلة. وماركس كان قد أطلع ماك كيرنان، أبي زيد وكيمونز على هواجسه، ولكن هل كان ثمة أي شيء كان بوسعه أن يفعله في الصحراء العراقية لرفع مستوى تسلسل القيادة كي يصبح مسموعاً؟ ألم يكن مطلوباً من رمسفلد أو فرانكس - أو حتى بوش - النزول درجة أو اثنتين على السلم، الاهتداء إلى الجنرال المسؤول عن المعلومات الاستخباراتية ذات العلاقة بأسلحة الدمار الشامل لدى القوات الغازية وسؤاله عن رأيه؟ كانت الإجابة منطوية على قدرٍ استثنائي من الأهمية.

كتب ماركس في دفتر مذكراته يوم 3 آذار/مارس "مازال هناك شيء من الفوضى. هل نحن آمنون في تقدمنا عبر المنطقة، أو تعاملنا مع حاجز وعلامة، غطاء، طريق فرعي؟" كان لا يزال ينتظر جواباً كاملاً لأحد الأسئلة التي كان قد تحدى بها اجتماع "الشباب الأذكياء" في جهاز استخبارات الدفاع في 4 تشرين الأول/أكتوبر: كيف نصنف مواقع أسلحة الدمار الشامل المشبوهة الـ 946 في العراق حسب الأولوية.

من الواضح أن الحرب كانت وشيكة، إلا أن غارنر كان لا يزال في البنتاغون. كان يرى أن مسألة الإدارة الملحة كانت لا تزال بحاجة إلى معالجة وقد أراد أن يشكل الوزارات العراقية مباشرةً غير أن سؤال: من المسؤول؟ بقي معلقاً. في إحدى المناسبات كان رمسفلد قد طرح عليه سؤالاً مفتاحياً بطريقةٍ رمسفلدية: "بالمناسبة، ما الذي ستفعله لمعالجة موضوع اجتثاث البعث؟ هل لديك خطة لاجتثاث البعث؟" كان غارنر سيتخلص من أعضاء حزب البعث الصدّامي بطريقة شبيهة إلى حدٍّ بعيد بأسلوب تطهير ألمانيا من النازية بعد الحرب العالمية الثانية.

أجاب غارنر قائلاً: "لا تستطيع تطهير الوزارات من البعثيين. لن يبقى أحد". أكثرية الوظائف مشغولة بحزبيين. "لذا فإن ما سنفعله هو إبعاد الرئيس؛ إبعاد المسؤول

التنظيمي". مع عدد قليل من الآخرين. "سوف نمكن جميع الباقين من العودة إلى وظائفهم ومع مرور الزمن سيقوم العاملون في الوزارة باكتشاف الأشرار والسيئين".

"يبدو لي ذلك معقولاً،" علق رمسفلد.

نزل غارنر السلم مشياً ليرى وولفوفيتز مرة أخرى.

"هل تعلم أننا لم نقم بعد بتغطية المهمة التي ربما تنطوي على القدر الأكبر من الأهمية؟" قال غارنر.

"وما هي تلك المهمة؟"

"إنها الإدارة. يتعين علينا أن نوجد فريقاً يتولى تشكيل الحكومة". لابد من توفير وجه عراقي "ما أطلبه منك" تابع غارنر "هو المبادرة إلى تجنيد أفضل العقول الموجودة في أمريكا، الذهاب إلى هارفارد أو إلى أي مكان آخر تريده، وصولاً إلى إيجاد فريق خبراء إدارة على أعلى المستويات يمكننا أن ننقله إلى هناك ليبدأ على الفور بعملية تشكيل حكومة تعمل عندنا".

"دَعْني أفكر بالأمر،" قال وولفوفيتز لغارنر.

لاحقاً بعد ظهر ذلك اليوم، قام وولفوفيتز باستدعاء غارنر ثانيةً، وبادره بالقول:

"فكرت بما قلته. ما رأيك بليز تشيني؟"

"تعني ابنة نائب الرئيس؟"

السيدة تشيني ذات الـ 36 سنة من العمر، الأم لثلاثة أولاد، كانت قد شغلت عدداً من المناصب في وزارة الخارجية وهي الآن نائبة مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى. عميقة الجذور في السياسية المحافظة منذ نعومة الأظفار، كانت ناشطة في حملة بوش - تشيني عام الـ 2000.

"لا يهمني إذا كانت شخصاً يعرف ما يقوم به من عمل وكيف".

"حسناً، ستأتي إلى هنا صباحاً، يمكنك أن تحضر وتبين لها ما تريده،" قال وولفوفيتز.

في اليوم التالي جاء غارنر إلى مكتب وولفوفيتز والتقى ليز تشيني.

بادرها غارنر قائلاً: "ما نحن بحاجة إليه هو وجه لقيادة عراقية أمام شعب العراق. أعتقد أن علينا أن نوجد فريقاً قادراً على الإدارة. ويتعين علينا أيضاً أن نسارع إلى الشروع في كتابة دستور. لابد من البدء بعقد انتخابات. بحاجة نحن إلى إجراء انتخابات في الأقاليم. وبالتالي فإن علينا أن نطلق هذا كله مباشرة وتمكينهم من المشاركة فيما يحصل".

قيادات، دستور، انتخابات - بدت قائمة طويلة.

قالت ليز: "دعني أعمل على هذا،. أيٌّ من ليز أو وولفوفيتز لم يضف كثيراً أو يُبْدِ أيَّ اعتراض. في وقتٍ لاحق، بعد ظهر اليوم نفسه، عادت إلى البنتاغون مصطحبة عدداً من الأشخاص من الخارجية. كان أحدهم سكوت كاربنتر، نائب معاون وزير الخارجية المائل إلى الصَّلَع رغم ملامحه الطفولية، الذي كان قد عمل على دراسة "مستقبل العراق".

قام غارنر بتلخيص خطته العريضة، الطموح للحكم. سجل كاربنتر بعض الملاحظات وقال: "حسناً، سأعمل على جمع هذه النقاط. ولكن متى سننتقل إلى هناك؟"

غارنر لم يكن يعرف بعد متى كان سيغادر. "لعل أفضل شيء بالنسبة إليك هو أن تبقى هنا وتشكل الفريق ثم تلتحق بي بعد أن أسبقك إلى بغداد".

"حسناً، سأفعل ذلك".

بعد مغادرة ليز تشيني وكاربنتر، عقد غارنر حواراً خاصاً مع وولفوفيتز.

قال غارنر "يبدو أنه عنصر جيد، أليس كذلك؟" مشيراً إلى كاربنتر. "لعله أصغر مما ينبغي. لا أعرف مدى توفره على الخبرة. من شأنها أن تكون جيدة".

"غير أننا لا نستطيع إرسالها إلى هناك لأنها تشكل مخاطرة كبيرة لكونها ابنة نائب الرئيس".

"معقول،" قال غارنر.

في الغرفة 666 في جناح إي المميز بالبنتاغون على الطبقة الثالثة، على مسافة بضع ممرات خارجية عن مكتب رمسفلد، سمع نائب رئيس أركان الجيش الجنرال جون إم كين عن دور غارنر الجديد. "يا للغرابة!" قال الجنرال بينه وبين نفسه.

كان ذلك الدب العجوز الجندي في الجيش منذ 37 سنة، كين، قد صُعق إزاء عدم الثقة الذي سبق لرمسفلد أن أبداه في السنوات الأولى تجاه القادة العسكريين. كان الوزير حاداً، جافاً ومتجهماً على صعيد التعامل مع آراء الآخرين وأفكارهم. غير أن كين رأى رمسفلد محقاً أكثر الأحيان حول الحاجة إلى إحداث تغيير في القوات المسلحة، ولاسيما في الجيش.

بعيداً عن العواطف والصفات الشخصية، كان كين قد أصبح أحد المفضلين لدى رمسفلد فغدا عملياً متولياً إدارة الجيش، لأن رمسفلد كان قد تشاجر مع رئيس كين، الجنرال ارك كي شنسكي، رئيس أركان الجيش. أواخر الـ 2000 وأوائل الـ 2001. كان قد نشب شجار كبير حول قرار شنسكي القاضي بمنح كل جندي في الجيش قبعة "بيريه" سوداء. طالما كانت "البيريهات" السوداء علامة فارقة لوحدات الجيش الخاصة، وحدات الاقتحام. شعر عناصر وحدات الاقتحام، المقتحمون السابقون وبعض أعضاء الكونغرس بالمهانة. بل وبادر اثنان من المقتحمين السابقين إلى القيام بمسيرة احتجاج من غورت بننغ الجورجية إلى واشنطن اعتراضاً على التغيير. إلا أن شنسكي صمد ولم يتزحزح عن موقفه. تحدث بوش مع رمسفلد مرتين بشأن السجال الذي دام طويلاً، إذ بقي دائراً مدة شهرين. وهكذا فإن رمسفلد الذي كان قد عاد إلى البنتاغون عازماً على التركيز على أولويات كبرى، كان قد تعين عليه أن يطفئ نار حرب مستعرة حول نوعية ولون القبعات التي كان أفراد الجيش سيعتمرونها.

في نيسان 2002، كان رمسفلد قد طلب من كين أن يكون رئيس أركان الجيش المقبل. كان كين قد وافق ولكنه ما لبث، مؤخراً، أن غير رأيه زاعماً أنه كان موشكاً على ترك الجيش لأن زوجه كانت مصابة بمرض خطير. أبلغ رمسفلد أن حياته الزوجية كانت لمصلحته هو على امتداد 37 عاماً، وآن لها الآن أن تكون لمصلحة زوجه. بين جميع كبار المسؤولين في البنتاغون كان كين قد وجد رمسفلد الشخص الأكثر تفهماً والأقوى تعاطفاً وإشفاقاً بما لا يقاس.

طلب كين من غارنر أن يزوره ويطلعه على الأمر. كان يرى غارنر ذكياً متوفراً على حشد كبير من الأفكار الرائعة. كان غارنر يرسم أوسع اللوحات - من الماء، الغذاء والكهرباء، إلى حكومة جديدة، دستور وانتخابات - محاولاً أن ينجز بسرعة ما كان قد تطلب إنجازه عقوداً من زمن وحياة جيش المبادرين والآباء المؤسسين الأمريكيين.

"من الذي تعمل معه؟" سأل كين.

"أعمل مع وزير الدفاع" أجاب غارنر.

"اسمع يا جي، ذلك هو الجواب الخطأ. أعني، وليغفر الرب لي، يتعين عليك أن تعمل مع الجنرال فرانكس، وواقعياً مع الجنرال ماك كيرنان. لا يمكنك أن تعمل مع الوزير. ثمة قناة منفصلة. أعني أن فريق عملك سيتعطل مباشرةً بتأثير القيادة العسكرية. أعني، التماس ذلك في الأفق. لن يكونوا راغبين في التعامل معك. وأنت لن تكون..".

"لا" اعترضَ غارنر "سنتدبر الأمر بطريقةٍ أو أخرى"

حاول كين تذكير غارنر بمبدأ وحدة القيادة. لابد لكل مسرح عمليات من أن يكون خاضعاً لإمرة شخص واحد. ينبغي لفرانكس أن يكون مسؤولاً عن المرحلة 4، عن الاستقرار. من شأن كل شيء أن يكون عسكرياً في الفترة المبكرة على أي حال. "إذا كنا قد تعلمنا شيئاً خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة فإنه هذا الدرس، يا صاحبي جي. اسمع مني. ما من مرة انخرطنا في عملية إلا وواجهتنا مشكلات مع هذه المسألة. لسنا مضطرين لتعلم هذا الدرس من جديد".

"سأتدبر الموضوع" قال غارنر مذكراً كين بأنه رجل عسكري وشديد الحساسية إزاء المشكلة. متابعاً كلامه قائلاً إن القرارات قد اتُخذت.

لم يكن كين غافلاً عن ذلك. ربما كان كون القرارات متخذة أسوأ. ما لبث أن سمع أبي زيد ضاغطاً على رمسفلد بشأن مسائل الحكم.

كان أبي زيد يقول: "سيادة الوزير، يهمني أن أعرف هوية الشخص الذي سيكون مسؤولاً لدى قيامنا بإسقاط النظام. ما طبيعة الجهاز السياسي الذي سيتولى الأمر؟" كان لدى أبي زيد 4 إلى 5 تنويعات للسؤال نفسه: "من الذي سيكون مسؤولاً عن البلد؟" سأل مرة أخرى.

مرة واحدة قال رمسفلد: "حسناً، لن دوغ عاكف على الانشغال بالأمر". كان ذلك يعني فايث الذي كان كين يعتقد بأنه حلقة ضعيفة جداً في سلسلة فريق رمسفلد وغير مؤهل بالمطلق لمنصبه. كان فايث غارقاً في بحر من الأوراق والوثائق المتضمنة خلاصات خطط متقنة. غارنر، مثلاً، كان يفترض فيه، تقنياً، أن يكون تابعاً للجنرال فرانكس. إلا

أنه كان من الآن يرفع تقاريره مباشرة إلى رمسفلد الذي لم يكن يعشق ذلك وحسب بل ويصر عليه.

قبل الانتشار بأيام، ذهب غارنر وبيتس إلى وزارة الخارجية لزيارة باول وآرميتاج. تبادل باول وبيتس عناقاً دافئاً. لم يكن الأمر مقتصراً على الألفة العسكرية الطويلة في الجيش؛ ففي 1994 كان الرجلان عضوين في فريق صغير أوفده الرئيس كلنتون لتجنب اجتياح أمريكي عدواني لهاييتي. كان الرئيس السابق كارتر، باول والسناتور السابق سام نان، الذي كان رئيساً للجنة القوات المسلحة بين عامي 1987 و1995، الثلاثي المكلف بقيادة المهمة. أما بيتس فقد كان الممثل العسكري المنتدب من الأركان المشتركة.

بادر بيتس إلى الكلام متوجهاً إلى باول: "كن واثقاً يا سيدي أننا، أنت وأنا، نستطيع أن نحل المشكلة لو قمنا بزيارة إلى هناك مع كل من الرئيس كارتر والسناتور سام نان".

ضحك باول وأورد بعض التعليقات على الحرب الأبدية المتصاعدة بين الخارجية والدفاع. إنها عامل تعطيل استثنائي، كما أجمع العسكريون الأربعة.

"من الواضح" قال باول "إن المشكلة مع هؤلاء "الزبائن" تكمن في أنهم لم يخوضوا أي شجار بارات(*)". كان يشير إلى بوش، تشيني، رايس، رمسفلد وآخرين في الإدارة ممن لم يسبق لهم أن خدموا في القوات المسلحة أو شهدوا عراكاً فعلياً. فيما بينهم كان الأربعة الجالسون في مكتب باول، بمن فيهم آرميتاج الذي خدم في سلاح البحرية مدة ست سنوات، يتقاسمون ما يزيد على 100 سنة من الخبرة العسكرية. كانوا يشعرون بأنهم المخضرمون القدامى الخبراء في معالجة المشكلات.

قال باول لزائريه: "أي شيء تكونان بحاجة إليه وأستطيع أنا تقديمه، سأوفره لكما. تعرفان ذلك. في الحقيقة أثار دون استهجاني الشديد حين أجبرك على التخلص من واريك وأوسليفان".

"يبدو لي، أريدك أن تعلم، أنه لم يكن هو من فعل ذلك. أعتقد أنه لم يكن إلا منفذاً لأوامر معينة". رد غارنر.

(*) حانات شُرب، خمّارات.

"حسناً، اسمع ما سأقوله. رفعتُ سماعة الهاتف وقلت: "اسمع يا أنت. أنا أيضاً أستطيع أخذ أسرى". بدأت أسحب جميع عناصر وزارة الخارجية من فريقك، لكن بعد لحظة تفكير بالموضوع رأيت أن ذلك لن يفيد أي طرف. سيؤدي إلى تخريب ما تقومون به. سيفضي إلى تخريب وهدم ما تحاول الأمة أن تنجزه. كان لابد لأحد الطرفين من أن يكون الأخ الأكبر في الأمر، فحاولت أن أكونه".

فيما كانا يهمان بالنهوض للمغادرة، بادر آرميتاج إلى إيقاف غارنر قائلاً:

"اسمع يا جي. اسمح لي أن أقول لك شيئاً واحداً. عندك عصابة جواسيس لعينة وخبيثة في فريقك. يتحدثون عنك. يقدمون التقارير عنك، يحسن بك أن تحمي ظهرك"

رد غارنر: "نعم سيدي. سأفعل. غير أن لديكم أنتم أيضاً بعض الجواسيس هنـ".

"نحن نعرفهم بالتحديد" قال آرميتاج. "نطلق عليهم اسم خفافيش".

"خفافيش؟" سأل غارنر.

"أجل. لأن أبناء الكلاب أولئك يظلون النهار كله قابعين وقد غطوا أعيهم بأجنحتهم: ولكنهم، ما إن نغلق الباب مساء حتى ينشروا أجنحتهم ويكثروا من الحركة محلقين الليل اللعين كله متصلين بالجميع".

أثار اللقب إعجاب بيتس وغارنر وأضفوه على أولئك الذين كانا يعتقدان بان لديث كان قد دسهم في فريقهما للمراقبة. أحد خفافيشهم من البنتاغون كان مزوداً بأربعة هواتف خليوية – تأكد الأمر لاحقاً بالفواتير. بعد انتشارهم في الكويت بدا هذا الشخص دائم الانشغال بأحد الهواتف. ذات يوم، وهو شديد التركيز على هاتفه الخليوي، وقع في بركة للسباحة. "كان ذلك حَدَثَ النهار المهم" قال بيتس فيما بعد متذكراً. "كانت الواقعة موضوعاً لكلام الجميع".

في هذه الأثناء عقد باول واحداً من اجتماعاته شبه السرية مع الرئيس. رايس كانت موجودة، كما العادة.

أثار باول مسألة وحدة القيادة. أبلغ باول الرئيس بأن هناك سلسلتي قيادة. يرفع غارنر تقاريره إلى رمسفلد، ويرفع فرانكس تقاريره إلى رمسفلد.

بدا الرئيس متفاجئاً.

تدخلت رايس وقالت: "ذلك غير صحيح. إنه غير صحيح".

كان باول يؤمن بأن من شأن رايس أن تكون، أحياناً، واثقة من نفسها تماماً، إلا أنه كان مطمئناً إلى أنه كان على صواب. فأكد ما قاله: "بلى، إنه صحيح". بإصرار واضح.

تدخل بوش، واقفاً في صف رايس، وقال: "انتظر لحظة. لا يبدو ذلك صحيحاً".

قامت رايس وذهبت إلى مكتبها للتأكد. حين عادت كانت تبدو، بنظر باول، مرتبكة بعض الشيء. أقرت: "إنه صحيح".

"نعم" قال باول واضعاً النصر الصغير في جيبه وخاطب بوش: "ثمة تسلسل عسكري للقيادة يصل على نحوٍ سليم إلى وزير الدفاع، إليك أنت. ولكنك قمت أيضاً بإيجاد هذا البديل الذي يمر عبر غارنر أو أي زبون مدني آخر ليصل أيضاً إلى الوزير".

متابعاً محاضرته الصغيرة، توسع باول قائلاً: "ليس ثمة أي خطأ أساسي في الأمر طالما أنت مدرك ومتفهم لأبعاد ما قد فعلته. غير أن عليك أن تعلم أن وجود تسلسلين للقيادة يعني أن ليس هناك رئيس مشترك في مسرح العمليات، يعني أن أي شجار تافه بينهما هناك، إذا لم يتمكنا من تسويته، من شأنه أن يصل إلى مكان واحد التماساً للحل. وذلك المكان هو البنتاغون. لا يتم ذلك لا في مجلس الأمن القومي ولا في وزارة الخارجية، بل في البنتاغون".

ما لم يقله باول هو أنه كان واثقاً من أن البنتاغون لم يكن مؤهلاً لحل النزاعات لأن وولفوفيتز وفايث كانا دائبين على لعب لعبتهما الصغيرة وعاكفين على متابعة برنامجهما الخاص برفع أسهم الجلبي.

رأت رايس أن الأمر كله لم يكن سوى جدل نظري. إذا تم إخضاع غارنر لفرانكس، فإن من شأن ذلك أن يحوّل الأخير إلى نائب ملك. وكانت تعلم يقيناً أن بوش لم يكن مستعداً للموافقة على ذلك.

غير أن تلك كانت الطريقة المفضلة عند رمسفلد؛ أن يواصل فرانكس وغارنر رفع تقاريرهما إليه، بما يمكّنه من قدر أكبر من التحكم – هدفه الدائم.

درج غارنر على عقد لقاءات دورية منتظمة مع رمسفلد، محاولاً إبقاءه على اطلاع، استصدار القرارات وإيصال إحساسه المتنامي بضخامة المهمة.

قضية المال كانت دائمة الحضور. ظل غارنر يشعر بأن أحداً في إدارة بوش لم يكن يرى بأن فاتورة ما بعد العراق ستكون كبيرة. وثيقة موازنة كان غارنر قد أعدها، وهي

تحمل تاريخ 27 شباط/فبراير 2003، بَيَّنَتْ أنه لم يكن متوفراً إلا على مبلغ 27 مليوناً من الدولارات لفريقه. أما الأرقام المطلوبة لتوفير الشروط الأساسية لإدارة البلد فكانت كبيرة بالمقارنة. توقع مساعدات إنسانية بما يزيد على مليار من الدولارات، بما فيها السنة التالية، عمليات إعادة بناء بـ 800 مليون وتسيير أعمال الحكومة بـ 10 مليارات – بمجموع يصل إلى نحو 12 ملياراً من أين كانت هذه المبالغ ستأتي؟

كان غارنر راغباً في التماس التوجيه. يتذكر أنه قال قبل السفر بيوم واحد: "يا سيادة الوزير، لدينا ثلاث خيارات. ما الذي نريد فعله في مجال إعادة البناء؟ هل نريد إعادة الأمور إلى ما كانت عليه قبل حرب الخليج الأولى؟ هل نريد إعادتها إلى ما قبل هذه الحرب؟ أم أننا نريد أن نجدد كل شيء؟"

كذلك أوردت وثيقة الموازنة اقتراحات بتنفيذ نسبة مئوية معينة لواحدة من تلك الفترات أو ترميم كل شيء مئة بالمئة. ومع ذلك ليس ثمة أي أرقام فعلية واردة في المقترحات – مصحوبة. وهو الأهم، بعلامات الدولار.

سأل رمسفلد: "كم سيكلف ذلك برأيك؟"

أجابه غارنر: "ستكلف العملية مليارات الدولارات. أي صيغة من صيغها".

"إذا كنت تظن أننا سننفق أموالنا على ذلك، فأنت مخطئ،" قال رمسفلد بأسلوبه المفرط في التعميم والتأكيد. "لن نفعل ذلك. سينفقون أموالهم على إعادة بناء بلدهم".

15

بدأ اللواء المدفعي "الميداني السريع" المكلف بتفتيش المواقع الـ 946 الواردة في قائمة أمكنة تخزين أسلحة الدمار الشامل الرئيسة بالاحتشاد في الكويت. خبراء من إدارات أخرى تابعة للبنتاغون مثل جهاز استخبارات الدفاع راحوا يتدفقون، ولكن فريق التفتيش أو الإكس تي اف (XTF)، لم يكن متوفراً على ما يكفي من العناصر، المعدات أو العربات اللازمة لإطلاق سائر المجموعات التي كانت مقررة إلى العمل الميداني لتفتيش المواقع. تم تقليص البرنامج، وجرى توزيع العناصر والشحنات بأفضل الطرق الممكنة.

في 10 آذار/مارس، تبلغ روتكوف أن عليه أن يُلحق أحد مراسلي النيويورك تايمز بصيدي أسلحة الدمار الشامل. قيل له إن الأمر صادر عن القيادة العليا مباشرةً. لم يتذكر اسم المراسل، غير أنه خربشه في دفتر مذكرته اليومية، مع أحرف أولى وخط ردي= لرجلٍ في عجلةٍ من أمره: "جوديث ملر. اكتب كيميا بيو مواد. وزير الدفاع راغب في إتحاقها بالاكس تي إف – تصل يوم الأربعاء".

رسمياً كان إلحاق المراسلين بالوحدات العسكرية فكرة بنتاغونية جديدة إلى حدٍّ بعيد والقوات على الأرض كانت لا تزال تحاول الاعتياد على الممارسة. باتت الحرب شأناً يدوم 24 ساعة في اليوم، وكان روتكوف على يقين كامل من أن ضباط الجيش يستطيعون، بفضل عمليات البث الفيديوي الآمن، الآني، والشامل للعالم، أن يمضوا نصف النهار عاكفين على مراكمة المعلومات وتجميع الإيجازات لمصلحة الرؤساء هناك في و شنطن.

كان روتكوف سينفذ الأمر، غير أنه لم يكن ميالاً إلى التعاطف مع النيويورك تايمز بعد تجربته مع مراسل تايمز آخر، هو مايكل غوردون، الذي كان قد أُلحق بمقر قيادة القوات البرية. صحيح أن غوردون كان مراسل شؤون عسكرية ماهراً وذا خبرة، إلا أنه اشتُهر بالتعالي والثقة الزائدة بالنفس. كان مصدر إلهام لإحدى ثلاثيات روتكوف الشعرية:

غوردون إن واي تايمز

يستعرض أخلاق وسائل الإعلام

كلها عنه هو

يوم الثلاثاء الواقع في 11 آذار/مارس عقد غارنر مؤتمراً صحفياً وجيزً في البنتاغون. تم اللقاء وراء الكواليس وبالتالي فإن اقتباس كلامه لا يمكن إلا بوصفه كلام "أحد كبار مسؤولي الدفاع".

إذا كان ثمة أي شك حول خططه، فإن غارنر قال للمراسلين: "ما نريد القيام به على الجبهة هو تسديد رواتب الناس في الوزارات، توفير القدرة على دفع رواتب الجيش ومعاشات منتسبي أجهزة تطبيق القانون والنظام القضائي". قال إنه خطط لعدم البقاء سوى أشهر قليلة. وأضاف أن العراق أفضل مما كانت عليه الأوضاع في أفغانستان. ثم قال: "لديك في العراق بلد أكثر تطوراً بعض الشيء بلدٌ مُهَيْكَل أكثر مما في أفغانستان.... ثمة البنية والآليات اللازمة لإدارة البلد وعلى نحوٍ كفؤ إلى حدٍّ معقول".

سأل أحد المراسلين عن لآي إن سي (INC)، المؤتمر الوطني العراقي، الجماعة التي يتزعمها أحمد الجلبي.

"لا نحاول استخدام أي منهم الآن. مفهوم؟" قال غارنر. ثم أضاف: "نحن لم نبادر إلى استخدام أناس من المؤتمر".

تلك الليلة، اتصل فايث بغارنر؛ كان مرتبكاً. لقد نَسَفْتَ صدقية الجلبي ومؤتمره.

رد عليه غارنر قائلاً: "اسمع يا دوغ، أولاً، أنا ليس عندي أي مرشح" لتولي دارة العراق بعد الاجتياح. "كذلك ليس لدى رئيسك أي مرشح أيضاً، بالمناسبة. لقد سمعت رمسفلد، مرتين أو ثلاثاً، يقول: "ليس عندي أي مرشح. إن الرجل الأفضل سيبرز""

لم يشعر فايث بالاطمئنان. رغم إقراره بأن غارنر كان شخصاً لامعاً، فإنه كان يراه غارقاً في الفوضى، وبدا قلقاً حقاً، مصدوماً تقريباً. "لقد أفسدت الوضع هنا" كانت رسالته. "إنك أثرت جملة من المشكلات لنا، والجميع في البنتاغون منزعجون منك فعلاً".

"اسمع يا دوغ، ثمة حل سهل وبسيط لمشكلتكم. اعفوني! بحق الجحيم، سعود غداً إلى شركتي. لستَ مضطرٌ لمسايرتي. بادروا إلى البحث عن أي شخص آخر".

"لا نستطيع أن نفعل ذلك الآن". قال فايث.

كذلك اتصل وولفوفيتز بغارنر. كان لطيفاً وناعماً، على النقيض من فايث الهائج، غير ن غارنر أدرك أنه كان يتعرض للتأنيب من قبل نائب وزير الدفاع.

"في الحقيقة سيتعين علينا أن نكون حذرين الآن،" قال وولفوفيتز، "لأن هناك أشيء كثيرة متعلقة بالمؤتمر الوطني العراقي وبالجلبي، ولابد لنا من التحلي بالحذر لدى تأطير ملاحظاتنا".

تلك الليلة، نزلت الكلمة على غارنر: لا تتحدث إلى الصحافة مرة أخرى إلى أن تغادر. بعد يوم أو اثنين، تلقى ضابط الشؤون العامة لدى غارنر، وهو نقيب في احتياط البحرية، رسالة رسمية أخرى: ممنوع هو من التحدث مع الصحافة، حتى بعد الوصول إلى الكويت.

في إحدى المنعطفات اللاحقة، تعين على النسخة الرسمية المفرغة لمؤتمر غارنر الصحفي العائدة لوزارة الدفاع أن تتعدل لإضافة ثلاثة "توضيحات" غير عادية على الإطلاق قطّعت نص ملاحظات غارنر وامتدحت المؤتمر الوطني العراقي.

أفاد أحد هذه "التوضيحات" بين أقواس بأن "المؤتمر الوطني العراقي قد لعب دوراً مهماً على امتداد الأعوام في عملية إقناع جماعات المعارضة العراقية المختلفة بالتعاون. وحكومة الولايات المتحدة عبَّرت عن إعجابها بنجاحات المؤتمر في تنظيم جعل تلك الجماعات تتبنى المبادئ التي تحبذها حكومة الولايات المتحدة على صعيد إيجاد حكومة ديمقراطية جديدة في العراق".

في 13 آذار/مارس اتصل مساعد رمسفلد الخاص ويده اليمنى، لاري ديريتا، وهو ضابط بحري سابق كان قد عمل في هيئة الأركان المشتركة، بغارنر وقال:

"يريد وزير الدفاع منك أن تقابله وتطلعه على ما لديك بإيجاز قبل السفر".

صباح اليوم التالي اجتمع غارنر وفريقه مع رمسفلد، وولفوفيتز، فايث وعسكريين من ذوي الرتب العالية من هيئة الأركان المشتركة – رئيس الأركان ميرز، نائب الرئيس بيس الجنرال كيسي، وعشرة ونيف آخرين.

بدا رمسفلد جافاً بعض الشيء وشارد الذهن. دون علم غارنر، كان بوش موشكاً على توجيه إنذار إلى صدّام: غادرْ العراق، وإلا فتتشب حرب. كان رمسفلد يحاول جاهداً منح صدام فرصة 48 ساعة.

تدخلت سفيرة إشكالية سابقة في هيئة أركان غارنر تدعى باربارا بودين "أنا رئيسة بلدية بغداد".

"حسناً، ذلك مثير للاهتمام، أليس كذلك؟" رد رمسفلد ساخراً.

رأى غارنر أن تعليق بودين كان غبياً وغير مناسب، إلا أنه لم يقل شيئاً.

تلك الليلة اتصل لاري ديريتا بغارنر وقال: "وزيرا لدفاع يريد مقابلتك في الثامنة صباحاً".

صباح اليوم التالي التقى رمسفلد غارنر وحده.

بادره قائلاً: "اسمع يا جي. أنا أتحمل المسؤولية عن كل هذا لأنني لم أعطك الوقت الذي كان يتعين علي أن أوفره لك". يا له من اعتراف غير مألوف من جانب رمسفلد! "بكل صراحة كنت غارقاً تماماً في الحرب إلى درجة أنه لم يتسن لي الوقت اللازم للتركيز على كل شيء تقوم به. حاولت مواكبة عملك، غير أنني لم أستطع أن أكرس له الوقت اللازم.

"أنا شديد الانزعاج في الحقيقة من هؤلاء الناس الذين كلفتهم بتسيير مور الوزارات" قال رمسفلد. ثمة في العراق 23 وزارة رئيسة، شبيهة، بأكثريتها، بوزارات حكومة الولايات المتحدة: الزراعة، العمل، الصحة، التعليم، العدل، الشؤون الخارجية والدفاع. الوزارات الأخرى تعكس الاقتصاد العراقي أو مشكلات خاصة: الكهرباء، الري، الثقافة والشؤون الدينية. أقل من نصف المعينين لإدارة الوزارات كانوا من الدفاع. "أعتقد أنهم، جميعاً، يجب أن يكونوا من وزارة الدفاع،" قال رمسفلد.

رد غارنر: " لا نستطيع أن نفعل ذلك يا سيادة الوزير. ثمة وظائف تنتمي بوضوح إلى إدارات أخرى أكثر من انتمائها إلى وزارة الدفاع". وتوجيه بوش إن اس بي دي – 24 (NSPD-24) تحدث عن مكتب تخطيط جامع للإدارات والوزارات.

"لا،" قال رمسفلد بإصرار. "أعتقد أنهم يجب أن يكونوا، جميعاً، من وزارة الدفاع". فالتوجيه نفسه كان قد جعل وزارة الدفاع مسؤولة.

"لا نستطيع الاتفاق على هذا بالتحديد" قال غارنر.

طال الأخذ والعطاء، غير أن الأوراق كلها كانت بيد رمسفلد. كان هو الرئيس، المعلم. صحيح أنه بقي لبقاً ولكنه ظل مصراً.

"موافق" قال غارنر، محاولاً السير في مسار آخر. "هات مرشحك لتولي وزارة الزراعة". كان غارنر قد جنّد هنري لي شاتز من مكتب المساعدات الزراعية الخارجية للولايات المتحدة. وشاتز هذا كان يعمل دولياً نيابةً عن وزارة الزراعة منذ نحو ثلاثة عقود.

"اسمع، سنهتدي إلى الأشخاص المناسبين. سأقوم بتشكيل فريق جيد لك". قال رمسفلد.

"لا أريد ذلك" رد غارنر. "دعنا ننظر في الصحة". كان قد عين الدكتور فردريك "سكيب" بوركل، مخضرم آخر من عناصر عملية توفير الراحة. "سبق له أن كان في كل العمليات المماثلة – كان مسؤولاً عن الصحة – كل شيء من هذا القبيل منذ عام 1986 تقريباً، ولم يخفق قط. إنه يعرف ما يقوم به من عمل".

اعترض رمسفلد قائلاً: "عندنا أكفاء أيضاً".

رد غارنر: "لا يوجد عندكم شخص يتحلى بالمستوى الذي يتحلى به بوركل من الكفاءة. لا أحد منا يتوفر على مثله. دعنا نستنفر أفضل الموجودين، والأفضل ليسوا جميعاً في وزارة الدفاع".

"ربما أستطيع التعامل مع شخص مثل روبن رفائيل لأنني أعرفها وأحترمها كثيراً واعلم أنها مجتهدة ومجدة في عملها". ورفائيل هذه، وهي سفيرة سابقة في تونس، كانت ستتولى المسؤولية عن وزارة التجارة العراقية. سبق لها أن عملت مع رمسفلد حين كان الأخير مبعوث الولايات المتحدة الخاص في الشرق الأوسط في 1983 و1984. غير أن رمسفلد أضاف: "أنا لست مرتاحاً إلى باقي هؤلاء الناس بالمطلق". من الواضح أنه لم يكن متوفراً على بدائل فاقترح نوعاً من الحل الوسط التوفيقي، أو أقله نوعاً من التأجيل. "انتبه، فكر بالأمر ثانية وأنت في الطريق واتصل بي فور وصولك إلى الكويت".

"سأفعل ذلك،" قال رمسفلد.

غادر غارنر مسكوناً بالشك. كل ما استطاع فعله هو التأكد من أنه جلب جميع أولئك الذين كان قد رشحهم وعينهم.

قبل اندلاع الحرب بثلاثة أيام، يوم الأحد، في 16 آذار/مارس، تنبأ نائب الرئيس تشيني على شاشة الإن بي سي NBC، برنامج **قابل الصحافة** (ميت ذه بْرَسْ)، قائلاً: "اعتقادي هو أنه سيتم، في الحقيقة، الترحيب بنا بوصفنا محرِّرين".

مقدِّم البرنامج، تيم روسّرت، أشار إلى أن الجنرال شنسكي كان قد أدلى بشهادة أمام الكونغرس قال فيها أن مرحلة ما بعد الحرب في العراق من شأنها أن تتطلب وجود قوة مؤلفة من بضع مئات آلاف الجنود.

"الإيحاء بأننا سنكون بحاجة إلى بضع مئات آلاف الجنود هناك بعد توقف العمليات العسكرية، بعد انتهاء الصراع ليس دقيقاً في اعتقادي. أظن أن في الأمر مبالغة". قال تشيني.

عند إطلالة تشيني التلفزيونية بالذات، كان غارنر وفريقه المسؤول عن العراق "بعد النزاع" المؤلف من نحو 150 شخصاً مجتمعين في مرآب للسيارات خارج البنتاغون. خرج رمسفلد لوداعهم. بالنسبة إلى أكثرية أعضاء فريق غارنر كانت تلك هي المرة الأولى التي يرون فيها الوزير شخصياً. توجه الفريق إلى قاعدة أندروز الجوية بميريلاند، وغادروا على متن نقالة خطوط جوية أمريكية إلى الكويت.

كانت العواطف متصاعدة. تذكر عارنر المناسبة قائلاً: "ما فكرت به كل الوقت هو تمني النجاح في المهمة". كان يفكر: "أنا بحاجة إلى القليل من الوقت الإضافي، نعم مزيد من الوقت".

في غضون ساعات بعد الهبوط في الكويت يوم 17 آذار/مارس، بادر اللفتنانت جنرال مالك كيرنان، قائد القوات البرية، إلى دعوة غارنر وبيتس إلى اجتماع لكبار ضباط أركانه.

واضعاً ذراعيه على كتفيّ غارنر وبيتس قال مالك كيرنان لأركانه: "هذان هما العضوان الجديدان في الفريق. تذكرة عودتكم متوقفة على توفير الراحة لهذين الأخوين".

كان مالك كيرنان قد أفاد بعدم توفر شواغر لفريق غارنر في الثكنة العسكرية، فوجد المجموع مكاناً في مجمّع فندق هلتون الجديد خارج مدينة الكويت. كانت شركة تيلوغ، براون وروت، التابعة لشركة هاليبورتون التي كان تشيني يعمل فيها، المتعاقدة مع وزارة الدفاع قد استأجرت المنتجع ترقباً للحرب. كان الفندق على مسافة ساعة بالسيارة.

في ذلك اليوم بالذات اتصل غارنر ونائبه رون آدمز برمسفلد طالبين منه إصدار قائمة الوزراء. واصل رمسفلد الضغط لصالح عناصر من وزارة الدفاع.

"موافق، ربما نستطيع أخذ أحد شباب الدفاع هنا" قال غارنر عند إحدى النقاط، ثم، عند نقطة أخرى "ربما نستطيع قبول آخر هناك". بدا وكأن رمسفلد ربما حصل على لمزيد، ربما حصل على ما يكفي للتحول إلى أكثرية.

"ثق بي" قال رمسفلد. 'سأشكل لك فريقاً جيداً. سيكون فريقاً عظيماً".

"سيادة الوزير، لا تستطيع إيصالهم إلى هنا في الوقت المناسب" قال غارنر. كانت الحرب موشكة على الاندلاع في أي يوم.

"صدقني يا جي، سنزودك بفريق أفضل بكثير من الفريق الذي تتوفر عليه الآن" وعد رمسفلد.

"موافق، ذلك رائع" قال غارنر.

بعد انتهاء المكالمة، التفت غارنر إلى آدمز وقال: "لن نستطيع أن نفعل أي شيء. سنواصل العمل بما هو متوفر لدينا. لا تقل كلمة واحدة لمخلوق. لن يعرفوا على الإطلاق".

بدأت الحرب في 19 آذار/مارس بضرب هدف فرصة نادرة في مزرعة الدورة، هدف تمثل بمجمّع واقع جنوب شرق بغداد على ضفة نهر دجلة، حيث قُدر خطأ أن صدّاماً كان مختبئاً.

بوصفها عملية عسكرية بحتة، بدت عملية الاجتياح سائرة بنجاح ويسر مذهلين. في اليوم الثالث كانت فرقة المشاة الثالثة متوغلة في العراق مسافة 150 ميلاً، وجيش صدام كان يتعرض إما للاندحار أو للذوبان. ومع ذلك فإن بعض الجنود العراقيين السابقين كانوا يعودون بملابس مدنية أو في بدلات من اللونين الأسود والأبيض الخاصة بفدائيي صدام، وحدات الميليشيا التي كانت بقيادة نجل صدام عُدي. مقاتلون مدنيون عراقيون دون أي حماية كانوا يلقون بأجسادهم على الدبابات. كانوا يتعرضون للذبح بأكثريتهم. اعتمدوا تكتيكات مجنونة، مستحيلة، انتحارية، مهاجمين الدبابات راجلين، أو محاولين نصب الكمائن لعربات برادلي القتالية بأسلحة خفيفة.

كتب روتكوف إحدى ثلاثياته:

يا لفدائيي صدام

من أي جحيم جاء هؤلاء؟

جميعاً هلكوا

استنتج ماركس العنكبوت أن أنصار صدام كانوا يسددون البنادق على ظهور المدنيين ويقولون: إما أن تهاجموا الأمريكيين أو تموتوا في أمكنتكم. بكل بساطة وعمق كان الشعب العراقي خائفاً. بعد بضعة أيام من الغزو تحدث ماركس، ماك كيرنان واثنان آخران مع تنت في الكويت.

"إذن، ما رأيك؟" سأل ماركس مدير وكالة الاستخبارات المركزية. "ليكن معلوماً أن هؤلاء الشباب يقاتلون. إنهم يهاجموننا".

"عاجز أنا، بحق الشيطان عن التفسير". قال تنت.

في 21 آذار/مارس 2003 – اليوم الثاني للحرب – قدمت رايس وهادلي إلى رئيس ومجلس الأمن القومي تقريراً موجزاً عن الأهداف الحربية التسعة للولايات المتحدة والتحالف. تمثل الغرض بالتأكد من أن الجميع موافقون على ما خططوه للعراق بعد وقف إطلاق النار. جرى التعبير عن أحد الأهداف على النحو التالي: "رؤية العراق متقدماً باتجاه اعتماد المؤسسات الديمقراطية ومتحولاً إلى أنموذج بالنسبة إلى المنطقة". يضاف إلى ذلك أنه تعين "عليهم تنصيب أكبر عدد ممكن من العراقيين في مناصب السلطة المرئية وبأسرع وقت ممكن... إنجاز ذلك كله على عجل".

كان الأمر منسجماً مع ما كان غارنر قد قاله للرئيس في المرة الوحيدة التي التقيا فيها. حظيت جهوده بالموافقة مرة أخرى من جانب كبار المسؤولين بمن فيهم رمسفلد.

درج غارنر على التحدث، عبر الخط الفيديوي الآمن من الكويت على نحو شبه يومي، مع رمسفلد. عادةً ثمة كان آخرون كثيرون في الغرفتين على الطرفين. يوم 22 آذار/مارس جددا شجارهما حول من كان سيتولى إدارة الوزارات. ظل رمسفلد واغباً في اختيار كل واحد باليد. سرعان ما نشب السجال وحاول غارنر أن يلوذ بجرعة من الواقعية مذكراً رمسفلد مرةً أخرى بأنه قد لا يتمكن من إيصال أشخاص جدد إلى المكان في الوقت المناسب.

حسب رواية أحد هواة تسجيل الملاحظات، قال رمسفلد: "من الواضح، على ما يبدو، أنك لست من فريقنا".

"وليكن، أنا موافق". رد غارنر. انتهى الاتصال. بعد ذلك أرسل غارنر كتاباً محمولاً بالفاكس إلى رمسفلد مؤكداً أن أهدافهما واحدة. كتب يقول: "أنا لاعب فريق" تأثر بعمق. إنه أسوأ أنواع تكتيكات الإكراه والقسر: إذا لم تتفق معي فأنت غادر، عديم الوطنية.

في الأيام الأولى من الغزو لم يتم استخدام، أو العثور على، أي أسلحة دمار شامل. والوتيرة المكثفة لحركة فريق ماركس الاستخباراتي لم تزد إلا سعاراً وضراوة. نوعية المعلومات الاستخباراتية عن مئات المواقع الباقية على القائمة كانت لا تزال غير مقنعة، والمعارضة العراقية غير المتوقعة كانت تتحرك. كان تقويم مثل هذه الأمور جزءاً من مهمات الورشة الاستخباراتية؛ لم تكن الورشة قد قامت بعملها.

عند إحدى المحطات تعين على ماركس أن "يبقّ البحصة". كان أحد رؤساء مراكز وكاله الاستخبارات المركزية التي كان يتعامل معها، كما كتب في 29 آذار/مارس قد "ظل يراقب هذه المنطقة خلال حياته المهنية كلها ولم يفهم عمق خوف الشعب. لا تتعب نفسك يا ماركس". بدا الجميع مهدودين من التعب. "لعل هذا أجدى الأعمال التي حاولت القيام بها ولكنه أكثرها صعوبة وإحباطاً". تابع ماركس يقول في دفتر مذكراته: "ثمة مدى المسؤوليات، راهنية التنفيذ المضغوطة، نقص الوقت لكل شيء عدا التنفيذ، لا وقت للتفكير. الجوهر أو المضمون لا يهم، غير أن السيرورة هي التي تقتلني. مجرد إبقاء بيت نار المحرك متقداً أمر بالغ الهول".

عبر روتكوف عن الحالة بدقة، معرّياً ألوان تعبه، إحباطه وشكه، قائلاً:

عَظْمَةُ الذهن تعبت

صعب أن تبقى عديم الفائدة

لا مجال للراحة - الناس سيموتون

قال بوش عبر الهاتف لرئيس الوزراء البريطاني بلير: "الآلاف يخلعون ملابسهم الرسمية ويعودون إلى بيوتهم".

"نعم، إنهم يذوبون ويتلاشون،" رد بلير.

"يذوبون ويتلاشون" ردد بوش.

في الحقيقة لم يكن لدى بوش أشياء كثيرة يفعلها بعد بدء القتال. الملاحظات عن أحاديثه واجتماعاته تبين أنه كان يكثر الكلام عن النصر، ولكنها تكشف أيضاً عن أن الرئيس كان يخشى من أن تخسر الولايات المتحدة الحرب الإعلامية رغم قدرتها على الفوز بالمعركة على الأرض.

في اجتماع عُقد يوم 25 آذار/مارس في البنتاغون، قال لرمسفلد: "لابد من تذكير الناس بأسباب وجودنا هنا. ستظل تذكر العالم بالذي نقاتله".

طيّر سلاح الجو ثلاث طائرات نقل كوماندو سولو عملاقة من ذوات المحركات الأربع محملة بمحطات بث مسموعة ومرئية لتحلق فوق العراق.

سأل بوش في اجتماع لمجلس الأمن القومي يوم 28 آذار/مارس: "كيف يبدو هذا بالنسبة إلى العراقي العادي؟" كان الجواب أن البث يستمر في الوصول إلى بغداد خمس ساعات في اليوم، من الـ 6 إلى الـ 11 مساءً. لم يكن ثمة بث فيديو مباشر، بقي الأمر مقتصراً على الصور الثابتة.

"لا يكفي" كان رد بوش. "لابد من التعديل. عليكم أن تسوقوا برامج. الناس لا يفتحون التلفزيونات إذا لم يكن هناك ما تجدر متابعته".

بعد ثلاثة أيام، عقد اجتماعاً فيديوياً آمناً مع الجنرال فرانكس. سأله: "هل أنت راضٍ عن عملياتنا الإعلامية؟ هل أنت قادر على إيصال رسالتنا إلى قلب بغداد؟"

عبر فرانكس عن استيائه من استمرار بث التلفزيون العراقي، وعن حاجته إلى المزيد من المترجمين لـ "رفع مستوى البرامج العربية على الصعيدين النوعي والكمي".

"إذا كنت بحاجة إلى مساعدة من الولايات، فسنوافيك بها". قال بوش.

في 4 نيسان/أبريل، قبيل انتهاء اجتماع آخر لمجلس الأمن القومي، أتى أحدهم على ذكر أن تيار الكهرباء كان مقطوعاً عن العاصمة العراقية، التي لم تكن القوات العراقية قد دخلتها بعد.

سأل بوش: "من الذي أطفأ الأنوار في بغداد؟"

رد فرانكس على شاشة الفيديو: "النظام حسب أقوى الاحتمالات لإعادة نشر قواته. غير أننا لسنا متأكدين".

"مفهوم، إذن، إنه النظام، أعلن للملأ أننا لا نفعل ذلك". قال بوش.

بدا الرئيس واثقاً مع ذلك، إذ قال في أحد اجتماعات مجلس الأمن القومي: "شيء واحد فقط مهم: كسب الحرب." رافضاً الخوض في "التخمينات ذات العلاقة بعالم ما بعد صدام". في لحظة خاصة سأله هادلي عن حاله. أجابه بوش قائلاً:

"اتخذت القرار. أنام ملء جفوني في الليل".

obeikandi.com